بسم الله الرحمن الرحيم

رواية

قلوب بين الأدغال

توحيد هارون نويه

المقدمة

ياقلب قف ..

ماعدت أحتاج الضجيج بعالمي ..

إسكت بنبضك وإبتعد , غادر حياتي دون شكوى ..

إركع سجودك وإستهل بكل حس فيك يقودني نحو الجنون وإبتهل فلقد صبوت الى الجنون ونلته فالأن قف

لاحياة مع الحيوات الغارقات في السكينة والرخاء ..

الموت يعلن كل يوم عيد ميلاد جديد ..

والصمت يلعن كل من سكتوا جزافا عن أماني حالمات بالصهيل ..

والليل يسرد أغنياتي في تردد ماكر يستبيح الحق في طرقات من ماتوا حيارى دون حق أو ذنوب ..

اللؤم يلعق ماتبقى من حياء وإنسجام في جلود وحوش من ثأروا حراما من ضحايا لم يأن لهم الصموت ..

وأشرقت شمس الجحيم لتلعن الموت الوحيد مجددا في ساحة القتلى النيام على حرير

المؤلف

قلوب بين الأدغال

أسير بين الطرقات بلاهدى , لاشئ يدعو للإهتمام تبدو لي الأرض متساوية والوجوه بغيضة يارب السماء إرحم هؤلاء القوم اللاهثون خلف السراب لا طعام ولاشراب ولاحياة .

الكلاب تعوى فوق كومة هناك ماذا تراها قد تكون كلاب وشياطين إجتمعوا على شئ ما .

ربما علي الإبتعاد عن ذلك المكان بعد نظراتهم الشرسة نحوي فقد يمزقوني الى أشلاء من أجل لاشئ.

هناك على الجانب الآخر من البناية بشر , هم يشتكون من حرارة الشمس وأنا لا أشعر بشئ ألبته .

زجرت صغار الشياطين التي تتسامر تحت ظل شجرتي قرب السوق وجلست مكاني في ممكلتي لحين تلوح أمامي تلك الحسناء لتقودني الى ديار أخرى ووطن آخر.

إتكأت على جذعها والمارة ينظرون إلي بإلفة فطالما كنت هنا , أذهب الى كل مكان وأعود الى هذه المملكة خاصتي حيث لا أحد يسحب سكينتي منها .. ألفتهم ولم يشعروا بالخوف مني , لم يرموني بالحجارة مثلما فعل الصغار وهم يدمون جسدي لا أحد من الناس يزجرهم ويحق لهم رمي المجنون هكذا تعودنا منذ الصغر ..

الذنب ذنبهم أم ذنب أُسرهم لا أحد يدري لكنني كنت أهرب منهم بأعجوبة دون سخط لأن ملامحهم البريئة كانت تجد المتعة في قذفي بالحجارة ومطاردتي بين الطرقات ..

السيارات تغدو وتروح تملكني فضول بالوقوف قرب الظلط وتأملها عن كثب ..

سحبت قدماي لأنهض .. الكل يبتعد عني ويترك لي مساحة لأعبر , لايرغبون بالجلوس لدي ولا الحديث معي لاوقت لديهم لذلك فهم يلاحقون الدنيا وأكاذيبها ..

وقفت على حافة الطريق أراقب السيارات والوجوه .. شياطين تغدو وتروح بشر وجنون وأشياء لا يعلم بها إلا خالقها .. وقفت طويلا لا أدري كم من الأيام وقفت هناك ..

ظهرت أمامي تلك الحسناء .. عينيها حزينتين رغم جمالهما .. مدت يدها تتوسلني نادتني .. فسرت خلفها أتبعها .. ومضيت .

عندما تناديني يصبح كل مافي الكون سرابا .. لا شمس ولا برد ولا مخلوقات يهمني .. علي فقط أن أصل إليها الى توسلاتها التي لاتكف حتى لو أغلقت أذناي عنها فهي تنظر لي من البعيد متوسلة وتناديني بلا إسم أعرفه فأمضي الى حيث تقودني الأيام والأشهر .. أعبر الفيافي والبحور والأدغال لايحفظني سوى من خلقني ..

أين ذهبت الحسناء .. هاهي تتركني مرة أخرى وتختفي تلفت حولي لاشئ يوحي بالحياة .. أرض جرداء لاشجر ولا ماء .. تراب تراب .. و سقطت .. الظلام كثيف كثيف جدا لايمكنني الرؤية و....

الضجيج

التثاقل يجثم على مُقلتي لكنني جاهدت لأفتحهما لاشئ حولي سوى ذرات التراب والرمال الملتهبة .

نهضت أبحث عنها لكن لا أثر لوجودها هنا , دُرت في مكاني ذاك عدة دورات ثم توجهت نحو الشمال ومضيت .

لقطات تملأ رأسي .. غرفة صغيرة وكرسي وقيود .. إنه أنا , هناك مقيد على ذلك الكُرسي بالسلاسل الثقيلة يوم سكون و آخر تملأه الأبخرة ورُقيات الشيوخ .. مابي جن لترقوني فأذهبوا .. إمرأة والحسناء يأتون لي بالطعام والماء وأنا مسجون هناك أنظرهم بصمت مبهم يخطط للهروب من القفص ..

لست مجنونا لكن الأماكن المغلقة تقهرني حد اليقين وتهلوس بي خيالاتي الى حد الفزع .. إطلقوا سراحي دعوني أمضي بسلام من هنا ولن أعود .. لن أعود لتلك الحجرة والقيود والرقية .. هذا كان وعدي لهم .

ويوما ما خرجت دون عودة .. منحت الحرية لنفسي وإنطلقت أبعد الأراضي عن الحجرة والقيود والقفص بأقصى ما أملك من قوة .. لكن الحسناء لاتكف عن مناداتي.

هناك من على البعيد لمحت بشر على ظهور أبقارهم يقتربون مني , وجوههم غريبة ثيابهم غريبة , محملون بأشياء غريبة ووقفت في إنتظارهم .

إقتربوا من مكاني خائفين متهامسين , لا أدري كيف كنت أنظر إليهم حتى أنهمرت أعينهم بالدموع وغطت الأمهات وجوه أولادهن .

ترجل أحدهم ووضع لي على الأرض إناء به حليب وهو يدعو الله أن يحفظني ويشفيني ثم واصلوا طريقهم.

كنت أنظر إليهم دون أن يرف لي جفن حتى إختفوا عن ناظري , جلست ووضعت إصبعي داخل الحليب أتذوقه وأعجبني طعمه فجرعته دفعة واحدة دون توقف ولم

تسلم منه سوى القطرات التي إنسكبت على جلبابي الممزق ذو الرائحة النتنة ومضيت نحو الشمال .

الظلام هجم علي بقوة فلم أعد أرى بوضوح لكنني تحسست طريقي نحو الضجيج والحياة .. وضعت ساقي فوق قطعة من الزجاج غاصت بها للأعماق وصرخت ثم سقطت مكاني ..

الألم أقوى من قدرتي على الإحتمال ونظرت الى ذلك الجني المسترخي يتأملني من بعيد والعذاب يتقطر في نظراتي فطار نحوي وأخرج الزجاج من باطن قدمي وأخذ كل الألم ثم طار بعيدا بعد أن شق لي طريق من الضوء أمضي به الى الضجيج بعيدا عن التراب والصحراء .

ولمحت أنوار المدينة تقترب فهرعت نحوها لألوذ بين الشوارع بالأمان .

أي حرية هذه التي أشعر بها ؟ كيف لايمكنهم رؤية ما آراه بوضوح ؟ .

بداية الأسطورة

بين المزارع الخضراء والحقول اليانعة تتربع قرية صغيرة وجميلة كجمال قلوب ساكنيها وبساطتهم وصفاء نواياهم ..

يتجسد جمال حياة هذه القرية في البساطة الحلوة والعفوية .. في أن كل البيوت بيت واحد وكل القلوب قلب واحد .. في القرية الجميع يجتمع على طاولة الطعام كيفما كانت على الأرض أو فوق بساط أو على مقاعد وطاولات .. المظاهر هي آخر همهم .. ينظرون الى الجوهر لا الى المظهر .. يتعاونون على الخير ويدفعون عنهم الشر بيد واحدة .. يفرحون معا ويبكون معا .. لافرق بين فتيان القرية وفتياتها لأن رابط الأخوة الصادقة هو مايربط بينهم ..

هنا في القرية النفوس صافية والقلوب نقية .. هنا كل شئ كما هو وكأن الزمان لايتغير والحدود لم تتغير والفوارق اللونية والطبقية لاوجود لها من الأساس ..

_ جدتي إحكي لي حكاية .

_ حان موعد نومك ياصغيرتي .

_ أرجوك ياجدتي مر إسبوع على آخر حكاية رويتها لي اتوسلك .

_ حسنا حسنا إصعدي الى فراشك أولا ودعيني أضع هذا الغطاء السميك على جسدك الملائكي ياصغيرتي والأن ضعي رأسك على وسادتك .

جلست الجدة قرب حفيدتها فوق فراشها الجميل الذي أعدته لها تماما كأسرة الأميرات الصغيرات في الحكايات القديمة فحفيدتها مولعة بالقصص الخيالية .

_ هيا ياجدتي .. قولي .

_ اي قصة ترغبين في أن أسردها على مسامعك اليوم؟

نظرت الصغيرة إليها بعينيها الخضراوان الواسعتان وهي تقول مفكرة:

_ لا أعلم إختاري أنتي ..

_ سأروي لك قصة الفارس والتنين؟!

_ أجل .. أجل .. أريدها .. أعجبتني من العنوان .

تهيأت الصغيرة للإصغاء وهي تنظر الى سقف غرفتها الخشبي وكأنها ترى في لونه الأبيض أحداث القصة التي لم تبدأ بعد أمامها , قالت جدتها بطريقتها المميزة في السرد القصصي :

_ في قرية صغيرة بعيدة نشأ طفل يتيم الأبوين تحت رعاية وحماية جده الذي يعيش في منزل ريفي بسيط وسط الحقول الخضراء .. إعتاد ذلك الصبي على الخروج مع جده للمزرعة صباح كل يوم .. وفي أحد الأيام العادية تمدد الصبي على الحشائش الصفراء الذابلة ليستريح من حرارة الشمس ريثما يلحق بجده في الإسطبل وفجأة .. سطع بريقا جذاب وسط الحقل إمتد حتى المكان الذي يجلس عليه الصبي .. فتوجه نحوه وقد أحس بذلك البريق يجذبه إليه أكثر فأكثر .. ثم إتسعت عينيه بمشاعر مختلطة من السعادة والخوف والذهول عند رؤيته لشكل بيضاوي ذهبي اللون يشبه البيض الى حد كبير لكنه يفوقه طولا وعرضا إقترب منه .. جلس على الأرض .. قرب يديه ببطء منه .. رفعه وقربه من عينيه .. تسائل عن هذا الشئ الغريب؟ عن سره؟ لماذا توقف لمعانه وبريقه عندما إستقر بين يديه؟ تلفت يمنة ويسرة .. لايوجد أحد سواه بالحقل خلع قميصه ولفه حول البيضة بإحكام حتى لم يعد يظهر منها شيئا وهرول بأقصى سرعة الى المنزل .. لم يقابل جده .. على الأغلب هو في الإسطبل عند هذا الوقت .. صعد السلم الخشبي بسرعة صوب غرفته .. وصل إليها بسلام ولم تتأثر البيضة من حركته السريعة .. أغلق الباب .. وضعها فوق كومة ثيابة المبعثرة على السرير ثم جلس على مسافة منها واضعا يديه على خديه بفضول يتأملها ويتسائل عنها ؟ إرتسمت السعادة على وجهه وقد ومض البريق الذي بهره أول مرة منها إنحنى عليها والإبتسامة تملأ شفتيه .. أتكون ذلك الذي يسمونه ذهبا ؟ والذي يتحدث عنه الجميع في المدينة ويقولون بأنه غالي الثمن؟ لمعت عينيه وهو يؤكد لنفسه حتما هو ..

_ ماهر .. أين أنت ؟

وصله صوت جده فقام بلف البيضة سريعا ووضعها أسفل مرقده .. وخرج لملاقاة جده ..

_ جدي أنا هنا .

_ ماذا تفعل في غرفتك ؟ ألم يكن من المفترض أن تلحق بي في الإسطبل ؟

_ ها .. أجل .. أجل .. الأن كنت سأذهب إليك !

لم يلاحظ جده من فرط التعب تلعثمه ولا الفرحة التي تقفز من خلف عينيه .. بل جلس الى الطاولة قائلا:

_ إذهب لتستريح يابني فلقد عملت بجهد في الأيام الماضية ..

أطاع جده على الفور وهرول عائدا الى غرفته وكنزه الثمين .

مرت عدة أشهر على تلك الحادثة وهو يجلس في كل يوم يمر عليه الى بيضته الذهبية يحدثها عن مغامراته بين الحقول وكيف أنه لم يُحظى بصديق حتى الأن لأنه لايحب الطريقة السطحية التي يفكر بها فتيان القرية الذين لاهم لهم سوى التحدث عن الفتيات وعندما عجز عن تصحيح أفكارهم إبتعد عنهم وصار بمفرده منذ وقت طويل يقضي جل وقته في حقل جده أو مع الأحصنة في الإسطبل , ولم ينسى إخبارها بأنه سيذهب في أقرب فرصة الى المدينة لبيعها والحصول على ثمنها لكي يتمكن من أخذ جده بعيدا عن هذه القرية التي لايجد له صديق فيها.

وذات ليلة شديدة الظلام إستيقظ على ولادة كائن صغير ذو جناجين بغرفته ولم يُخفي خيبة أمله حينما إكتشف بأن كنزه الذي رعاه بعناية لم يكن سوى بيضة طائر ما لكن تلك الخيبة تلاشت عندما بدأت أواصر الإلفة والمحبة تتعمق بينه وبين الطائر الذي تعلق به وكأنه أمه .. ولم يكن صديقه الجديد سوى آخر تنانين الأرض إختار هذا الصبي ليكون فارسا له .. وكانت المفاجأة أن التنين يتحدث لغة البشر وبطلاقة وثقة .. خلال شهر كامل قضياها معا وماهر يحاول جهده تخبئة صديقه عن الأعين وأولها جده .. لكن حجم التنين بدأ يكبر يوم تلو الآخر ولم تعد غرفة ماهر الصغيرة تتسع لضخامته ولا يستطيع هو تخبئته بعد الأن وأخيرا قرر مصارحة جده فجلس اليه يحدثه عن أمر صديقه المُتكلم ذو الأجنحة .. لم يصدق الجد في بادئ الأمر مايقوله حفيده وحدق إليه وكأنه فقد عقله على حين غرة , لكن عند رؤيته التنين الضخم خلف المنزل تلك الليلة .. طلب من حفيده آخذ التنين ومغادرة القرية على الفور ..

لم يتفهم الصبي ذلك الطلب الغريب من جده وإحتج بشده لإبعاده عنه وظن أن جده يعاقبه لتربيته التنين وإخفاؤه الأمر عنه ..

_ لماذا تطلب منا الرحيل ياجدي لايمكنني تركك بمفردك .. لن أرحل .. (قال الصبي).

_ إنهم يبحثون عن هذا التنين .. سيقتلونك لامحالة إن لم تهرب معه بأقصى سرعة ومن الأفضل لكليكما أن ترحلا الأن ..

_ من هم ياجدي ؟! ولماذا سيقتلونني ؟

قال التنين موضحا :

_ القوى الشريرة ومن يتبعون لها .. من سفكوا دم أجدادي وعشيرتي ياماهر أنا آخر سلالة التناين الأسطورية وهم يريدون التخلص مني ليسيطروا على العالم .

_ أنا لا أفهم شيئا ؟ عن ماذا تتحدثان ؟ أي قوى شريرة تلك؟ لماذا يريدون التخلص منك؟ .

إقترب التنين من ماهر ليستعرض عليه ماضيه و معارك آباءه وأجداده وأعدائهم .. ثم قال برجاء :

_ أنت فارسي .. كنت أبحث عنك منذ سنوات طويلة .. سنحارب جميع القوى الشريرة في العالم معا .. سآخذك الى أرض لن يصل إليها أحد تتدرب فيها على القتال وتكتسب كل المهارات لنبقى أحياء ونحارب حتى الموت أو تحقيق مانصبو له حينها فقط سترقد أرواح عشيرتي بسلام ..

_ إذهب يابني .. سأدعو لك .. إذهب فقدرك أن تصبح فارسا لهذا التنين وإن لم تكونا معا ستضعف قوتكما ويتمكن الأعداء من قتلكما بسهولة .. لن أخدع نفسي وأعرض حياتك للخطر ببقائك معي فطالما حرصت عليها وعلى سعادتك .. طالما كنت قلقا فيما سيحدث لك بعد موتي وكيف ستعيش في هذا العالم القاسي .. كنت أدعو الله أن يمنحني عمرا أطول حتى أحمل الامانة التي تركتها لى والدتك الى بر الأمان .. وإستجاب الله لدعواتي .. الأن معك من سيحميك ويحرص على بقائك حيا ويدفع عمره حتى تعيش لا أرجو أكثر من هذا .. لاتقلق علي سأظل في قريتي وسط أهلي سعيدا لأن حفيدي هناك في مكان ما يحمي البشرية ويسترد حقوقها المسلوبة.

سمح له جده بالرحيل .. و ودعا بعضهما بدموع حارقة فقد لايلتقيان مرة أخرى .. إمتطى ظهر تنينه وحلقا الى بعيد .. لا أحد يعلم أين ذهبا حتى الجد المسكين الذي إعتكف يدعو لهما طوال الوقت ليمنحهما الله القوة للفوز بمعركتهما .

_ صغيرتي هل نمتي ؟

قالتها الجده بحنو وعينيها تمتلئ من وجه حفيدتها الملائكي وقد غطت في نوم عميق قبل إنتهاء القصة .. تسحبت برفق رغم ثقل وزنها وأغلقت الباب خلفها بهدوء متوجهة بدورها الى غرفتها وهي توقن أن حفيدتها ستطلب منها إكمال القصة فور إستيقاظها من سباتها .

بين الحلم والحقيقة

- ماهر .

- من أنتي ؟

- أنا الأميرة ..

- أي أميره؟

- هكذا تقول الأسطورة , أنت الفارس وأنا الأميرة .

- أنتي تكذبين , لا وجود لأميرة في كل قصص الفرسان والتنانين .

- نحن متشابهان , قصصنا تشبه بعضها , أنا أيضا فقدت والدي منذ صغري وأعيش مع جدتي في الواقع انا لم ألتقي بهما ولا أعرف حتى ملامحهما .

- أنتي طفلة صغيرة لم يتجاوز عمرها خمسة أعوام كيف وصلتي الى هنا؟ هذا المكان بعيد جدا ولايستطيع أحد الوصول إليه ؟

- لا أدري كيف وصلت , لكن جدتي أخبرتني إنك وتنينك ذهبتما الى أرض بعيدة , أين التنين ؟

- لماذا تسألين ؟ ماتقولينه غريب وخطير للغاية , أي طريق سلكت ؟ من أرشدك ؟ من أنت ؟ معنا أم ضدنا؟

- لا أعلم , لايمكنني الإجابة عن كل هذه الأسئلة دفعة واحده لكن ما أعلمه إنني متشوقة لرؤية التنين الذي ربيته وقمت برعايته , أخبرتني جدتي بقصتك وكيف إنك وجدت البيضة الذهبية في حقلك وخبأتها لأنك ظننتها ذهبا ستكسب الكثير من ورائه.

- هل تمزحين ياصغيرتي ؟

- لا .

- إذا فليفسر لي أحدا مايحدث هنا ؟ أي أميرة ؟ وأي قصة ؟ وأي جدة ؟

- سأخبرك , هل ستستمع إلي واقفا ؟! عليك الجلوس لأن جدتي تقول إنه لايجب أن نروي القصص ونحن واقفون كما إنها حذرتني من مخاطبة الغرباء لكنها أخبرتني عنك وعن التنين لذلك أنت لست غريبا .

- يا إلهي .. ألايمكنك أن تكفي عن الثرثرة ؟ .. ها قد جلست .. تحدثي ..

- جدتي تقول أن أبي كان رجلا وسيما ومزارعا رائعا يتحلى بكثير من صفات الفرسان أمثالك , كان شجاعا ودائم الإبتسام والرضا , يحب جميع سكان القرية وهم يحبونه لأنه رجل طيب كما إنها قالت لي أن جميع فتيات القرية كن مغرمات به لكنه إختار أمي لأنها جميلة وبسيطة وقد كانت هي الأخرى حديث جميع سكان القرية والقرى المجاورة أخبرتني جدتي إنها عندما ذهبت لأمي تطلب منها الزواج من أبي وافقت بسعادة لأنها أحبت ذلك الرجل القوي الممتلئ بالعزة والشموخ ورحابة الصدر من الوهلة الأولى وهو أبي بالطبع ثم تزوجا , في تلك السنة أتيت أنا الى الدنيا ورحلا منها هما , قالت جدتي إنني ورثت جمال أمي الساحر وشعرها الطويل , وورثت جرأة أبي وشجاعته وفطنته وإبتسامته ..

وتنهدت بحزن وهي تسبح بعينيها الى بعيد وكأنها تحاول رسم صورة متكاملة بتلك الأوصاف التي مدتها بها جدتها لوالديها اللذين لم يحالفها الحظ لرؤيتهما أبدا وظلت طوال سنوات عمرها الصغير تبحث عنهما في ملامحها وملامح المحيطين بها علها تتعرف عليهما ولو خيالا عابرا أو صورا ضبابية ..

_ هل إنتهيت .

قالها الفارس بضيق قبل أن يضيف :

_ لم أفهم منك شيئا ياصغيرتي ؟ لكنني أتعاطف معك وأقدر ماتمرين به , رغم أنك لم تردي بعد على أسئلتي سوى بسرد الأقاصيص عن حياتك وجدتك .

ظهر التنين وإقترب من مجلسهما تحت ظل الشجرة الوارفة ثم إنحنى أمامها قائلا :

_ مرحبا بك ياسيدتي , كنا ننتظرك ..

عانقته بفرح طفولي وهي تتطاول لتتشبث برقبته و ماهر ينظر إليهما مشلولا ..

_ ماذا تقول ياصديقي ؟

_ ألم أخبرك يافارسي القوي إنها الأميرة التي كنا ننتظرها لنبدأ المعركة , إنها كبيرة الأن بما يكفي لتحارب معنا (قال التنين) .

_ لابد من أنك تمزح ياعزيزي .. إنها طفلة .

_لا بل إنها الأميرة , تقول الأسطورة أن قوتنا ستتضاعف إن إنضمت إلينا لأنها تملك قوى ملكة التنانين أمي.

_مما لاشك فيه إنك تهذي , لايمكنني تصديق هذه الخرافات إنها طفلة لا أميرة ياصديقي ..

ثم والاهما ظهره وهو يقول مؤكدا :

_ إفعلا مايحلو لكما أنا لن أحارب مع طفلة , أنت تستهون بي كثيرا .

_ ماهر إنتظر ..

_ لاتلحقا بي .. أبدا .

إلتفت إليها التنين قائلا :

_ إنتظري هنا ياصغيرتي .. سأعود في الحال .

هزت رأسها الصغير وجلست على الأرض تتأمل الأزهار والفراشات الملونة حولها.

_ ماهر .

_ ماذا تريد ؟

_ إصغي إلي , هل كذبت عليك يوما ؟

_ لا لم تفعل ..

_ إنها بالفعل الأميرة وقد أتت لتكون معك , من أجلك أنت وحدك .

_لتكن من تكون , لن أعرض حياة طفلة للخطر إنها معركتنا وحدنا وقد أوشكنا أن نبدأ ماعليك معرفته إننا أقوياء بما يكفي .

_ مازال أمامنا بعض الوقت .

_ نحن نسير بطريقة جيدة , اليوم صار عمري عشرون عاما , إحترفت كل فنون القتال ماذا ننتظر بعد؟

_ كنا ننتظر قدومها , لاتسخر مني لأنني أقول الحقيقة بالفعل .

_صدقني لايمكنني أن أضحي بطفلة في معركة تخصنا أنا وأنت حتى لو كان ماتقوله حقيقة .

_هي جزء منا .. إكتمال لنا , هذه المعركة ليست لكلينا هي ضد الشر كله وللجميع الحق في المشاركة فيها ..

_ إحضر لي الجميع , لاتحضر لي أطفالا .

_القرار يعود لك , لكن علي إخبارك أن الأميرة لايمكنها أن تأتي الى هذا العالم سوى مرتان إن تركتها تذهب فلن تبقى أمامك سوى فرصة واحدة , إنظر الى عيناي ياماهر سأجعلك تراها كيف تبدو بعد عشرة سنوات من اليوم أنظر الى جمالها وقوتها لقد خُلقت لك.

_ لن أنظر ياصديقي أنا لا أريدها معي , أما أنت فأختر من شئت بيننا .

_ أنت فارسي سأختارك أنت .

_ إذا أطلب منك إعادتها الى حياتها الطبيعية , ودعنا نجهز لمعركتنا الكبرى .

_ لك ذلك يافارسي .

المحارب الشجاع

_ صباح الخير جدتي .

_ صباح الخير ياصغيرتي , إستغرقت وقتا طويلا في النوم على غير عادتك ..

عانقت جدتها وهي تستقر على حجرها هامسة :

_ لن تصدقي مارأيت ..

_ ماذا رأت غاليتي الصغيرة ؟

_ رأيت ماهر والتنين ؟!

_ ماهر والتنين ؟؟

ثم أنفجرت بالضحك وهي تعانق حفيدتها :

_ تقصدين تلك القصة التي كنت أحكيها لك بالأمس ؟

_ نعم ياجدتي .. هل تصدقيني؟

_ أصدق ماذا ؟

_ أنني رأيتهم وعرفت المكان الذي يختبئون فيه .

_ هههههه .. إنه حلم ياغاليتي فلقد أخذك النوم قبل أن أكمل لك بقية القصة .

حكت فروة رأسها بيدها الصغيرة وهي تنظر الى عيني جدتها قائلة بإستياء :

_أتظنين بأنه حلم ؟!

_بالطبع ياحلوتي , عقلك الباطن خزن الحكاية وعكسها لك في المنام .. هيا إغسلي وجهك ونظفي أسنانك لحين إعداد الإفطار.

_ حسنا .. لكن أريد معرفة إن كانت التنانين موجودة بالفعل أم أنك تكذبين علي ؟

_إنها موجودة بالفعل ياحلوتي وهي نوع من الزواحف ذوات الدم الدافئ وأكبر كائن حي يستطيع الطيران والتحدث أحيانا كما أن بوسعه الدفاع عن نفسه بعدة طرق كنفخ النار أو الثلج أو الحمض من فمه .

_ أهو يعيش مع البشر ياجدتي ؟

_ لا .. غالبا مايعيش بالقرب من البحيرات وداخل الكهوف , هيا كُفي عن الأسئلة وإذهبي.

حاولت تجميع تلك النقاط التي ذكرتها جدتها وهي تسترجع شكل التنين الذي رأته بالأمس , كانت تظنه حقيقة وكأنها لمست ذلك العالم بيديها لكن جدتها لاتكذب عليها أبدا فإن قالت عنه حلم فذلك يعني أنه حلم .

نظفت أسنانها أمام مرآتها الصغيرة التي وضعتها لها جدتها حسب طولها كي لاتتعب نفسها بالوقوف على الكرسي للوصول الى المرآة الكبيرة المعلقة على الحائط غاص جسدها النحيف داخل بيجامتها الوردية الواسعة بينما إنسدل شعرها الذهبي الطويل على ظهرها وتساقطت خصيلاته الناعمة على حدود جبهتها وبين عينيها متماشية مع الخُف الصوفي الأصفر الذي ترتديه بطريقة مثيرة للشفقة .

تسللت رائحة الطعام الى أنفها فغسلت وجهها بسرعة وهي تستنشق رائحة الدجاج المشوي بالأرز والفلفل الاخضر والذي تعده جدتها بطريقة شهية .

جرت نحو المطبخ برشاقتها المعتادة والتي ساهم وزنها الخفيف والصغير في جزء كبير منها .. وجلست الى طاولة الطعام تتابع تحركات جدتها وهي تضع الأطباق بإنتظام وكأنها تصيح بها أسرعي ياجدتي أسرعي ..

_ لنبدأ الطعام .. تفضلي ياصغيرتي الحلوة طبقك المفضل ويجب عليك إكماله حتى آخره.

وضعت لها فخذة كبيرة مطهية بالصلصة والتوابل فوق القليل من الأرز وإنقضت الصغيرة عليه بشراهة وهي تضحك لأنه مهما كانت شهيتها مفتوحة فمعدتها

الصغيرة لاتحتمل إنهاء هذا الصحن الممتلئ وقالت رغم ذلك بصوتها الجميل الذي يفوق جماله أعذب صوت مغنية في الكون :

_ إنظري إلي فقط سأكمله كله ولن أترك فيه ذرة أرز واحدة ولا لحم .

_هيا أريني مايمكنك فعله أيتها المشاغبة الصغيرة ..

_ أوه جدتي .. لماذا لم تذكريني؟ هيا أرجوك إكملي لي القصة التي بدأناها بالأمس.

_ياإلهي أنتي لاتنسين شيئا ألبته .. عليك تناول الطعام الأن وبعد أن تفرغين منه سنكملها ..

قالت بدلال وهي تنظر الى جدتها بعينيها الساحرتين الواسعتين وقد لاحت سحابة رائعة فيهما :

_ جدتي أرجوك ..

إستسلمت الجدة قائلة وهي تشملها بنظرة حنان دافئة :

_ حسنا .. حسنا .. أين كنا؟

صاحت الصغيرة بسعادة :

_ عندما طلب جد ماهر منه مغادرة القرية عند رؤيته للتنين الضخم خلف المنزل .

_ أوه ياإلهي لا أصدق إنك نمتي من هذا المكان حسنا مارأيك أن أحكي لك سر البيضة التي وجدها ماهر ومن الذي وضعها في حقله ..

_ أجل أجل .. أخبريني .

_ بدأت الحكاية منذ آلاف من السنوات قبل إنقراض فصيلة التنانين الأسطورية .. كان هناك الكثير منها أحدها ينفث النار من فمه وأخرى تنفث الثلج لتجميد أعدائها وثالثة تنفخ حمض ناري لتحرق أعدائها أيضا ذات عام إشتد الحصار على هذه التنانين وإقتحم قراصنة الفضاء والمخلوقات الدموية الخارجية الأرض وبدأت تتساقط الواحد تلو الآخر وإجتمع بعض الفرسان النبلاء لحمايتها والدفاع عنها , عندها فقط أيقنت هذه التنانين أن البشر ليسوا جميعا أعداء لها فبات كل تنين منذ ذلك اليوم يختار فارسا ليحميه ويدافع عنه ومثل كل الفرسان إختارت ملكة التنانين ذلك الفارس القوي الذي لايهاب الموت ليحميها ,لم يكن قد مر على زواجه من محبوبته أكثر من ثمانية أشهر فتركها ولحق بنداء التنين الملكة الى الحرب الشرسة

التي شنها الفرسان والتنانين على قوى الشر في العالم , مرت السنوات لم ترى زوجة الفارس محبوبها الذي رحل ولم تسمع عنه خبرا أنجبت طفلها الذي حمل الكثير من ملامح والده وصفاته .. وكبر ذلك الإبن وكبرت معه تساؤلاته عن والده الغائب , لم يعد فارسا من الفرسان الذين خاضوا المعركة ضد الشر لاهم ولا التنانين .. أخبرته أن والده توفى بعد ولادته بعدة أشهر وتقبل الإبن الحقيقة بصمت مرت خمس وعشرون عاما على تلك الحادثة وفي يوم ما كان الإبن يستريح في ظل شجرة ظليلة في حقل والده بينما ذهبت الأم لتجلب الطعام لهما , قام الإبن مفزوعا عند رؤيته لسقوط جسم هائل الحجم وسط الحقل , شق الحشائش مسرعا حتى وصل الى مكان سقوطه , وهاله ما رآه في تلك الأونة , تجمدت أطرافه وإرتجف قلبه بين جوانبه رعبا , كان حيوانا ضخما ذو جناحين كبيرين بطنه ورقبته الرخوتان مليئتان بالدماء كما يبدو إنه مصاب بجرح غائر تتفجر منه الدماء غزيرة .. لم تساعده ساقيه على الحركه وإلا لكان في أبعد مكان تأخذه إليه قدميه بعيدا عن هذا الحيوان المخيف ..

_لاتخف .. لن أؤذيك .. لاتخف .. لاتذهب أرجوك, أنا ملكة التنانين أنا تنينة والدك .. إقترب لن أؤذيك .. لن أؤذيك .. أنت إبن فارسي .. إقترب ..

إقترب منها .. كانت خائرة القوى وآلام جرحها تنعكس بوضوح على عينيها .. لم تؤذيه .. همست له بضعف وهي ترمي بيضة ذهبية خبئتها تحت جناحها الأيمن ..

_هذا إبني .. آخر سلالتي ساعدني لآخذه بعيدا عن هنا .. ساعدني أرجوك ..لاوقت لدي للحديث أو لشرح أي شئ .. خذ هذه البيضة وأنظر بعمق داخل عيناي سآخذك في رحلة عبر الزمان الى أرض أخرى حيث ستجد مكانا آمنا لبيضتي لكن عليك أن تعود قبل موتي وإلا فلن تعود أبدا .. هل ستساعدني ؟

لم يرد عليها بل حمل البيضة الذهبية الثقيلة بين زراعيه وركع أمامها منفذا كل ماتقوله له عبر عينيها الهزيلتين اللتان خرج منهما شعاعا غطت دائرة ضوءه جسد الشاب وإرتفع .. إرتفع نحو السماء بسرعة البرق, خطفه الضوء في لمح البصر وألقى به الى (قوس قزح) إلتقطته ألوان (قوس قزح) وسارت به بعيدا قبل أن ترميه نحو السحب .. تلقفته سحابة تلو الأخرى في رحلة سريعة :

_ أيتها الرياح إنه إبن المحارب (ناما) الذي أنقذ الأرض من قراصنة الفضاء يحمل إبن ملكة التنانين أوصليه في طريقك (قالت السُحُب).

سحبته الرياح بقوتها وركضت به ..

_ أيتها الشمس إنه إبن المحارب (ناما) الذي أنقذ الارض من قراصنة الفضاء يحمل إبن ملكة التنانين إحمليه الى أكثر الأماكن آمانا ليضع بيضة الملكة (قالت الرياح للشمس).

تلقته الشمس قائلة :

_أنا أعرف ذلك المكان كما أعرف كل الاماكن في الكون , لقد رأيت المعركة ورأيت موت المحارب الشجاع (ناما) والفرسان الآخرون أخبري جميع من في الأرض أيتها الرياح أن الملكة تحتضر وأن المحارب(ناما) قد مات .

حملت الرياح الخبر وسارت .. وأشرقت الشمس على مكان الأمان الذي تنشده الملكة وهو حقل ذلك الصبي ماهر الذي سيصبح فارسا لها .. وأعاد البرق إبن (ناما) الى دياره ليسقط أمام ملكة التنانين .

_ أشكرك ..

قالتها والدموع تتسلل من عينيها وضمته بين جناحيها..

_من يصدق أني سأصل الى هنا واموت في حقل فارسي .. أن إبنه سيساعدني ويحمل بيضتي الى بر الأمان .. سأمنحك كل قوتي عرفانا لهذا الجميل .. سأمنحها لك ولن أترك لنفسي شيئا فقط قم بدفني في حقل فارسي هنا .. هنا .. هنا... وشهقت شهقة الموت وإرتخت أجنحتها حوله وغادرت ..

بكت السحب وإنزوت الشمس ناحبة وزمجرت الرياح مولولة وتوشح قوس قزح بالسواد ودخلت الأرض في كوكب الحزن والآلام , لكن قبل رحيل الملكة وصلها همس تلك الأم مترجية :

_لاتفعلي ذلك .. لقد أبعدتي عني زوجي لاتأخذي إبني أتركيه .. لاتأخذيه .. أتوسل إليك بألا تحرميني منه ..

أصدقاء الطفولة

_ مرحبا .. مرحبا .

وصل الى مسامعهما أصوات مختلطة عند الباب الخارجي قطعت عليهما ماتبقى من القصة ..

_ نحن هنا .. بالمطبخ .. تقدموا الى الداخل .

صاحت الجدة للقادم حيث كان الباب مفتوحا كعادة كل أهل القرية ..

عند رؤيتهما للقادمين هبت الجدة وحفيدتها للإستقبال .. وإنزاح غشاء الضيق من على وجه الصغيرة عند رؤيتها لخالتها الحبيبة وولديها .

إرتمت بين زراعي خالتها التي ضمتها بحب أمومي وقبلتها على خدودها الوردية وجبينها ثم توجهت نحو الجدة لمعانقتها بحرارة .

سعدت الصغيرة كثيرا بقدوم خالتها من المدينة بعد غياب دام إسبوعين متتاليين عن المنزل لم ترى فيه خالتها وولديها اللذان لاتكف عن اللعب معهما طوال الوقت .

خالتها تقيم معهما في المنزل لأنها أرملة توفى زوجها وترك لها ولدين دون ملجأ ومأوى ولأن الجدة تحمل قلبا كبيرا يسع الدنيا بمن فيها ذهبت للفور ونقلت أغراض خالة حفيدتها دون أن تقبل منها أي إعتراض لأنها كانت تعتبرها مثل إبنتها والشخص الوحيد المتبقي لها في الحياة بعد وفاة إبنها وزوجته .

إبنيها يكبران حفيدة الجده بأعوام متفاوتة , أحدهما بتسعة سنوات والآخر أربعة , لكنها تحبهما معا لأنهما أخويها وتستمتع باللعب معهما ومشاركتهما أسرار الطفولة الصغيرة ,رغم أن(أيمن) وهو الأكبر بات مؤخرا يعرض عن اللعب معهما ويخبرهما طوال الوقت بأنه أصبح رجلا ولايرغب في اللهو مع الأطفال.

عندما باءت كل محاولاتهما بالفشل الذريع تركاه وشأنه وإنغمسا في لهوهما وألعابهما الطفولية .

إختار(أيمن) منذ عدة أشهر الذهاب الى الحقول والعمل بها مع العمال والمزارعين الآخرين , وسره كثيرا أن وجد من هم في مثل عمره من الفتيان والفتيات يعملون بجد وعزيمة .

كون له العديد من الأصدقاء من أبناء المزارعين الذين يتسامر معهم عند إنتهاء العمل وهم يتسكعون بين الحقول الخضراء , ثم قرر أخيرا الذهاب الى المدينة للإلتحاق بالمدرسة .

رحبت الجدة ووالدته بالفكرة فهو أول عضو من العائلة ومن القلائل في القرية من يختار لنفسه دخول المدرسة بإرادته ويبتعد عن الحقول وحياة المزارعين ..

دوما أرادت والدته أن يصبح محاميا وراقت له تلك الفكرة التي أقحمتها أمه الى رأسه سنة تلو الأخرى .. هذه الرحلة التي إستمرت لإسبوعين كانت من أجل تسجيله بأفضل المدارس في المدينة وإيجاد مكان سكن له في منزل صديقة لوالدته تقطن بالمدينة أسعدها أن يبقى في منزلها مع أبنائها للدراسة .

الآن عاد(أيمن) ليودع أصدقاءه في القرية ويحزم حقائبه إستعدادا للرحيل فهو لن يعود إلا في الإجازات الطويلة وقد لايعود حتى ينهي مراحله الدراسية كلها .

تولى الصبيان إدخال حقيبة السفر التي تحوي ثيابهما مع والدتهما الى غرفتها وأفرغ كل منهما ثيابه بخزانة غرفته والصغيرة تساعدهما بهمة ونشاط ليفرغ صديقها (إياد) من ترتيب ثيابه ويذهبا للعب الكرة في الحديقة ..

بينما بدلت الخالة ثيابها وجلست في غرفة الإستراحة مع الجدة يتجاذبان أطراف الحديث ..

_ أنظري ماذا أحضرت لكي ..

هرولت نحو(إياد) لرؤية الهدية التي جلبها لها وصاحت بفرح وهي تضمها الى صدرها فلقد كانت الدمية التي أحضرها لها عبارة عن عروس صغيرة تحمل بيدها شنطة وأدوات مطبخ من البلاستيك .

_ وأنظري ماذا أحضرت لنفسي , أتذكرين الطائرة التي حدثتك عنها لقد أحضرتها.

_ ياإلهي كم هي جميلة .. دعني آراها ..

وإنصرف الأثنان لرؤيتها وتفحصها جيدا وكأنهما يستكشفان كل ذرة فيها , ثم جلسا فوق السجادة الصوفية على الأرض وكل منهما يستعرض ألعابه للآخر و(أيمن) الذي غاص داخل ذلك الكرسي الوثير المصنوع من الجلد قرب الخزانة أخذ ينظر إليهما بشرود .. كم من الأيام تمنى لو ينضم إليهما ويعيش طفولته مثل الأطفال الآخرين لكن موت أبيه وتركه لهم في وقت مبكر والتعاسة التي تغطي وجه والدته منذ ذلك الوقت حرمت عليه النوم واللعب مثل الأطفال الأخرين في عمره .. كان مرغما بحمل أعباء أسرته وترك كل شئ غير هذا .. مرغما على مساندة والدته والأخذ بيدها وطمأنتها بأن هناك رجلا يقف خلفها ويدعمها ولن يتركها .. خلع ثوب الطفولة وإرتدى ثوب الرجولة باكرا لأجل الأم الحنون التي أنجبته والأخ الذي سيكون غدوة له في المستقبل وإبنة خالته التي فقدت والديها ولا أحد لها في الحياة بعد جدتها غيرهم .. قرر أن يهب حياته وسعادته وعمره لعائلته لا لنفسه وأقسم أن يعيش ليقدم لأمه وجدته وأخيه وإبنة خالته السعادة والأمان ويوفر لهم كل متطلبات الحياة ..

دوما أراد الإنضمام إليهما لكن سنوات عمره التي تكبر كليهما منحته هيبة ووقارا جعلاه يبتعد عنهما .

تسائل كيف سيهون عليه تركهما وحدهما ؟ من سيتولى توجيههما ومراقبتهما ووالدته وجدته مشغولتان بالمطبخ والحقل والنظافة وبالكاد تجدان الوقت الكافي للجلوس معهما .

تلألأت الدموع في عيني(أيمن) وزكريات طفولته الجميلة داخل هذا المنزل مع جدته وأمه و(إياد)و(ياقوت) تمر أمام عينيه , أدرك في صميمه أن لامجال للتراجع عن القرار الذي إتخذه بشأن مستقبله , سيظن الجميع إنه جبانا إن فعل ذلك , عليه أن يكون أكثر قوة من أجلهم لأنه رجل هذا المنزل وسيتولى مسئوليته لامحالة إن طال الزمن أو قصر , حتى متى سيلعب ويلهو ويتهرب من تحمل مسئولياته ؟ يجب أن يدرس ليتمكن من تعليم (ياقوت) لأن العادات لاتسمح للفتيات في القرية بالسفر خارجها للتعليم , هو يعرف أنها تعشق المدرسة فكم من مرة لمح لهفتها لرؤية

الطلاب القادمين من المدينة كم من مرة أخبرتهما هو و(إياد) بذلك السر ,بأنها ستصبح طبيبة عندما تكبر وعندما تسائلا عن هذه المهنة وضحت لهما أن الجدة قالت لها في أحد المرات أن والدها كان طبيبا يُعالج المرضى والفقراء والمساكين الذين لايملكون نقودا لذلك هي تريد أن تُصبح مثله , أما (إياد) فقد كان حلمه مختلفا عن كليهما وغريب , أخبرهما إنه يحلم أن يكون أميرا لقلعة كبيرة ويكون له حصان أبيض جميل مثل الفرسان القدماء ليُنقذ الأميرة من الأشرار ويأخُذها الى بر الأمان مازال يذكُر أن (ياقوت) سألته بسذاجة:

_ من هي الأميرة؟

لم يكن في ذلك الوقت يملك الجواب , لاهو ولا أي أحد آخر ..

الأمير والفرس

عقب العشاء جلسوا في غرفة الإستراحة لتروي لهم الجدة رواية المساء ..

قالت الأم :

_(أيمن) عليك أن تبدأ بحزم أمتعتك في الغد ياعزيزي لأن جارنا (إبراهيم) سيغادر الى المدينة ووافق على أخذك معه .

أومأ(أيمن) برأسه دلالة على الموافقة والترحيب بالفكرة لأن(إبراهيم) رجل طيب القلب وكان صديقا لوالده المتوفي كما أنه يمتلك عربة جميلة وسريعة يحلم بركوبها كل فتيان القرية إضافة إلا أنه متعلم في أفضل المدارس والجامعات ويُعد من مثقفين القرية البارزين في كافة الميادين .

قالت (ياقوت) الجالسة بإستسلام أمام جدتها التي تقوم بتمشيط ضفائرها الطويلة :

_ جدتي .. متى سأذهب الى المدرسة مثل (أيمن).

قبلتها جدتها وغمرتها بين زراعيها ضاحكة :

_ آه منك ياصغيرتي الحلوه .. ألاتعلمين أن الفتيات لايذهبن الى المدارس .

إتسعت عينيها بإضطراب قائلة :

_ لماذا ؟!

واصلت الجدة تجديل ضفائرها :

_لأن الفتيات ياحلوتي يتعلمن الطبخ والتنظيف والزراعة وينتظرن فارس أحلامهن على شرف غُرفهُن ليأتي بحصانه الأبيض ويأخذ أميرته الى قصره.

تجمعت الدموع في عينيها وهي تقفز مبتعدة عن الجدة وقالت بعناد طفولي وهي تضرب الأرض بقدميها :

_ لا .. سأكون مثل والدي وليس مثل أي أحد .

كان منظرها يدعو للضحك وهي تقف في منتصف الغرفة بضفيرة واحدة والأخرى مسترسلة بشتات كدموع عينيها المنهمرة ..

تدخلت خالتها لترضيتها .. خلاف (إياد) و(أيمن) اللذين لاذا بالصمت .. أحدهما خوفا من الضحك عليها فتضربه والآخر مساندا لها في قضيتها .

_ (ياقوت) تعالي إلي يا أميرتنا الفاتنة ..

إرتمت بين أحضان خالتها باكية ..

_أنتي لاتزالين صغيرة ياحبيبتي عندما تُصبحين في عمر (أيمن) سنرسلك فورا الى المدرسة .. مارأيك ؟

_ عديني بذلك ياخالتي ..

قبل أن تفتح فمها لتنطق بذلك الوعد الكاذب حسم (أيمن) الأمر مؤكدا :

_ أنا أعدك يا(ياقوت) .. أعدك .

إلتفت إليه الجميع في غرابة , وعانقته (ياقوت) بفرح بعد أن تركت زراعي خالتها فأحتواها بين زراعيه قائلا بإصرار وثقة:

_ لكِ علي ذلك يا أختي المشاكسة .. هيا إذهبي الى جدتي لتنهي لك تجديل شعرك .

منحته قبلة سعيدة على خده وهي تهرول الى جدتها بسرور وتجلس في مكانها السابق .

_ جدتي نريد حكاية ..

قالها(إياد) وهو يغالب النعاس فردت عليه الجدة وهي تصب الزيت على شعر (ياقوت) ..

_ أي حكاية ترغبونها اليوم ..

نظر كل من(إياد) و(ياقوت) الى بعضهما مُفكرين وإنسحب(أيمن) الى غرفته لينزوي بها تاركا لهم القصص والحكايات الخرافية ..

_ قصة الأمير والفرس .

هتف (إياد) كمن عثر على ضالته ..

_ أنا أريد قصة (فارس التنين) .

قالت (ياقوت).. ثم أضافت ناظرة الى جدتها برجاء:

_ أنتي لم تُكمليها لي ياجدتي ..أتذكرين ؟.

نهض (إياد) من مكانه ليُمسك بكم جلباب الجدة قائلا:

_لانريدها .. سئمنا من تلك القصة , جدتي أنتي تروين القصص ل(ياقوت) منذ سفرنا الأن حان دوري لتعويض مافاتني ..

ربتت الجدة على رأسيهما مهدئة وهي تقول :

_مايقوله أخيك صحيحا يا(ياقوت) كنت أروي لك قصة كل ليلة .. الأن حان دوره ليختار ..

جلس(إياد) بسعادة قرب(ياقوت) على السجادة كمن ينتظر سماع شئ مهم وبالغ الخطورة وهو يهمس لها بإنتصار :

_هل سمعتي .. لدي إسبوعان سأختار فيهما مايحلو لي.

لوت(ياقوت) شفتيها بحركة تدل على أنه لم يهزمها وأن هذان الإسبوعان سيمران سريعا لتعود المياه الى مجاريها وتطلب القصة التي تروق لها ..

مطت الخالة ساقيها أمامها على الكنبة مسترخية فهي تعلم أن هذان الطفلان سينامان بعد فترة وجيزة من بداية الحكاية وعليها حملهما كل الى فراشه بينما تهيأت الجدة لتروي عن الأمير وفرسه .

_في غابة بعيدة تعج بأصناف وألوان من الأشجار والأزهار .. وجد الطفل نفسه الناجي الوحيد بعد غرق السفينة في البحر وتجاذبته الأمواج موجة تلو الأخرى لتلقي به في عالم غريب تتحدث به حتى ذرات الرمل..

لم يدري عندما كبر وصار شابا أهو من تعلم لغتها أم هي من تتحدث بالفعل ؟ لا أشياء تدل على وجود أي كائن آخر, عداه وفرس لؤلؤي جميل المنظر , هذا الفرس كان صديقه بل بالأحرى كل شئ في تلك الغابة كان يمت إليه بصلة وثيقة وساهم بطريقة ما في تربيته طوال العشرون عاما الماضية , لم يعرف عالما غير هذا .. ولا لغة غير لغة الغابة التي كبر فيها .

لم يساوره الشك يوما بأنهم قد لايكونوا أهله وعشيرته , لم يعر إختلافه عنهم أدنى إهتمام .. فتلك الشجرة الطويلة التي تسمح له بالنوم تحتها وفوق فروعها تختلف عن الزهرة عن مياه النهر .. عن الرمل .. عن الفرس .. الجميع مختلف والجميع يحب بعضه ويتعاون مع بعضه متغاضيا عن كل تلك الإختلافات , السعادة والغناء واللهو كانوا من أساسيات الحياة في الغابة .. وفجأة .. في أحد الأيام أُصيبت الغابة وسُكانها بالشلل التام .. مرض الأمير مرضا شديدا وكوت الحُمى جسده فصار يرتجف ويهذي .. إلتفوا حوله في حيرة مُستغربين مما أصابه .. تساقطت الدموع والكل يقترح علاجا وحالة الأمير تزداد سوء في كل يوم يمر أكثر من قبلها .. لعق الفرس بلسانه وجه الأمير لعله يُخفف من شدة حرارته وصعقته الحرارة المرتفعة بوجهه وجسده .. تساقطت الأمطار وإختلطت مع مختلف الأعشاب المفيدة في الغابة وحملها الفرس داخل فمه ليسكبها في جوف الأمير .. ولم تزول عنه الحُمى .. باءت كل محاولاتهم بالفشل وقرروا أخيرا بعد بحث وإجتماعات أن يحمله الفرس على ظهره الى بلاد بعيدة يعيش فيها عدو الطبيعة اللدود الذي يمشي على قدمين ويُخرب الأرض بيدين أثنين .. ووافق الفرس رغم خطورة المهمة .. رغم علمه بأنه قد لايعود إذا ذهب لأرض العدو بأقدامه الأربعة .. أكد لهم أن حياة الأمير لن تكون في خطر لأن سكان تلك البلاد يشبهون أميرهم الى حد بعيد هذا إن لم يكن هو واحد منهم .. أرعبتهم في البدء فكرة أن يكون الأمير من أولئك الأعداء ذوات القدمين لكن خوفهم عليه وعشق كل الغابة له من أشجار وأزهار وحشائش ومياه وعصافير جعلتهم ينفون فكرة أن يكون الأمير فردا من تلك الجماعة .. في ليلة قمرية حمله الفرس ..لفت شجرة ذات عيدان لينة طويلة الكثير منها لتوثق الأمير بالفرس حتى لاينزلق ويسقط أرضا .. ودع الغابة بدموع حزينة وإنطلق بأقصى سرعة أودعها الله فيه نحو لاهدف ولانهاية .. الى حيث تأخذه مشيئة الأقدار .. لم يلتفت الى الوراء شق الصحاري .. سار بمحاذاة البحيرات والأنهار .. ليل نهار .. طوال أيام متواصلة لم يسمح لنفسه بأن يتوقف أبدا .. لم يسمح لنفسه بأن ينهار وهذيان الأمير

يشق أذنيه ليستقر في قلبه المُجهد .. وحرارة جسمه إنتقلت الى كل جزء منه وشعر بحريقها كان يدرك جيدا إنه إن سقط سيسقط الأمير .. وإقترب إقترب من أنوار بعيدة تتلألأ في الظلام .. تلوح حينا وتخبو حينا آخر .. أيكون بصره قد ضعُف خارت قواه بدأت أطرافه تتخدر .. دقات قلبه هزلت بشدة كاد أن يسقط .. تشجع .. قاوم ضعفه .. قاوم ضعفه , هرع نحو الأنوار .. بدأت تقترب .. تلوح بوابة القلعة أمام ناظره يقف أمامها فصيلة القدمين المتوحشة .. صوبت نحوه السهام .. تفاداها لاخوفا على حياته بل حتى لاتصيب الأمير .. تدافع نحوهم بشراسة ..إقتحم باب القلعة .. جرحته السيوف والخناجر .. هوى أرضا وصهيله يعتذر بأنين للأمير.. وغابت الدنيا من عينيه لقد سقط .

حُمى الحب

- لقد نام الطفلان ..

قالتها الخالة لتنبه الجدة أن من تروي لهم يستغرقون في نوم عميق ولايسمعون حرفا مما تقول ..

خرجت الجدة بسلام من طقوس الحكاية وهي تنظر الى حفيديها النائمين كالملائكة على السجادة .

نهضت الخالة لتحمل (ياقوت) أولا الى غرفتها ثم(إياد) وتعاود الجلوس مع الجده .

_أتعلمين شيئا ياخالتي (مريم) يجب أن أعترف بأنك تسردين الحكايات بطريقة جميلة وممتعة وجدت نفسي أندمج مع الطفلين في حكايتك دون أن أشعر .

ضحكت الجدة وهي تسكب لهما كوبي شاي من البراد الفضي على الطاولة , قدمت كوبا ل(سوزان) وجلست في مكانها ترتشف الآخر بإستمتاع وكأنها تخلصت من حمل ثقيل للتو وتحتفل بحريتها .

_من أين تأتين بهذا الكم الهائل من الروايات والأساطير ..(قالت سوزان)

_ إنه شئ في غاية البساطة ..

_لالا .. أؤكد لك إنه ليس كذلك , مثلا أنا لايمكنني سرد جملتين من قصة فما بالك بما تقولينه أنتي ..

_في قديم الزمان يا أبنتي كانت لي جدة تروي لي كل مافي الكون من قصص .. تجعلني أعيش في عوالم من الخيال وكأنني ألمسها .. وذات يوم لمستها .. عندها أدركت أن الإيمان والثقة عاملان أساسيان في حياتنا أي عندما تحلم بشئ وتتعلق به بهوس جنوني ستجده ماثلا أمامك مهما طال الزمن أو قصر .

_ ماذا تعنين ؟ (تسائلت سوزان) .

سرحت الجدة بعيدا وهي تقول :

_أعني أن مايقوله البعض لايخلو من الحقيقة يا(سوزانا) نحن مرتبطين بالجاذبية بطريقة أو بأخرى, كل مانفكر به ونريده نجذبه نحونا دون أن نشعر أننا نفعل ذلك حقا .. أن بمقدورنا جذب كل مانحلم به ونهفو إليه الى حياتنا , سأضرب لك مثلا صغيرا .. أنا .. طوال سنوات عمري كنت أحلم بالزواج من فارس ممن أسمع عنهم ويقول الجميع بأنهم أساطير .. كان ذلك هوسي وشغلي الشاغل في الحياة لم أكف عن ذلك الحلم أبدا أو أتنازل عنه كان قلبي يؤمن بشدة إنه سيأتي من أجلي وحدي وسأكون له , سخر مني كل من رويت له حلمي ..أتدرين ماذا حدث؟

_ ماذا حدث ؟

_لقد آتى من أردته وتمنيته وحلمت به .. آتى بكل المواصفات التي رسمتها في مخيلتي .. لم يخيب إيماني لأن ثقتي بقدومه كانت أكبر من ثقتي بأنني أتنفس وأعيش ..

_إروي لي عنه ياخالتي نحن لانعرف عن حياتك شيئا .. كل مانعرفه أنك أتيتي من مكان بعيد وإستقريتي في هذه القرية لكن أحدا لم يتعرف على خالي أو يلتقي به لأنك أخبرت الجميع هنا بأنه ميت .

طافت سحابة حزن بعينيها ثم إستطردت:

_المكان الذي أتيت منه يا(سوزانا) في الجانب الآخر من الأرض ..حيث تغرب الشمس هناك عندما تشرق هنا .. زوجي كان فارس قريته بذل روحه لحماية الأرض .. كيف أصفه لكِ .. زوجي تجسيدا للقوة والشجاعة والمروءة .. زوجي إنسان يحمل قلبا من يقين وشموخ .. دماؤه تفتخر بأنها تجري بين عروقه وشراييه وأوردته .. عينيه تحمد الخالق في كل حين أنها خلقت لتكون له ومعه كل مافي

زوجي يرفع رأسه فخرا وشموخا بأنه ينتمي لهذا الرجل لا غيره .. لايمكنني وصفه مهما قلت ..

_ كم هذا جميل .. وكأنك تتحدثين عن أسطورة من الأساطير القديمة ..

لاحت إبتسامة باهتة على شفتي الجدة ..

_ هذا مايحدث بالفعل ..

_حدثيني عن قصة حبكما .. كيف تعرفتما على بعضكما ؟ كيف عثرتي عليه ؟ كيف عرف أنك كنت بإنتظاره هو دون سائر رجال الأرض وفرسانها البواسل ؟

_رويدك .. رويدك ياإبنتي .. لاترمين كل أسئلتك بوجهي دفعة واحدة ..

_ حسنا .. حسنا .. سأوجه أسئلتي كلٌ على حده متى بدأت قصة حبكما ؟

_آه .. تلك كانت من أروع لحظات عمري على الإطلاق .. حينها كنا نسترخي أنا وصديقاتي بعد الإنتهاء من نظافة المزارع نتحدث عن شباب القرية .. كل واحدة تحكي عن الشاب الذي أعجبها ومايُعجبها به إلا أنا .. لم يكن في حياتي رجلا أسرد عليهن قصة ولهي به .. لم يكن يُعجبني شاب بعد .. كانوا جميعا في نظري يفتقرون الى الكثير من صفات الفرسان الشجعان .. كانوا رجالا عاديين وأنا بطبيعتي أنتظر فارسا من فرسان الروايات والأساطير إقترحت علينا (قمر) التسلل الى مكان تجمع الشبان ومراقبتهم وهم يتبارزون بالسيوف وافقنا بالفكرة على مضض .. من باب حب الإستطلاع والفضول لا أكثر .. وتتابعنا بهدوء كلصوص الليل الى مقر تدريب الشبان كانت كل واحدة منهن مسحورة برؤية حبيبها وطريقته في القتال وحمل السيف .. وإنشغلن عني كل واحدة بمن تحب .. شعرت بالسخافة والملل ولعنت الحب الذي يفعل بهن هذا , ثم بغتة .. شدتني تلك المبارزة الساحرة الماكرة لم أتبين ملامح الشاب الذي يخوض مبارزة عنيفة ومسلية مع حبيب (قمر) .. حركاته رشيقة وخطواته سريعة .. يحمل السيف بخفة ويستخدمه بسهولة وعبقرية .. كلاهما لم يكن يشق له غبار في المبارزة التي طالت دون أن يهزم أحدهما الآخر .. وأنصرفنا متسحبين كما أتينا .. غير أني لم أكن كما أنا عندما أتيت مع صديقاتي .. مهارته .. سرعته .. رشاقته .. لمعان عينيه .. سمرة لونه .. كل شئ فيه تسلل الى قلبي بدهاء وجُبن مثل تسللنا الى مقر تدريب شباب القرية .. ومنذ ذلك اليوم فقدت نفسي .. تحولت بأعماقي أماكن وبنايات وبشر وقمر وشمس .. أصبت بحالة فريدة من نوعها لم ينفع معها أي علاج على ظهر الأرض وكأنه تلبسني كما يتلبس الجن الإنس لم أعرف مما أعاني تحديدا ولا ذلك التغيير الذي حصل لي , إنه معي في

كل مكان عندما أغمض عيناي وعندما أفتحهما عندما أكون بمفردي أو بين أهلي وصديقاتي .. كان دوائي رؤيته , بت أذهب الى السوق كل يوم لا لشئ سوى للبحث عنه .. أحيانا كنت أكره غبائي وأنا أقف في منتصف الطريق أتأمل طريقة حديثه مع أصدقاءه .. ثم أنتفض برعب عندما تقبض بي عينيه متلبسة بالجُرم المشهود فأهرول لأرتمي بفراشي وأخبئ وجهي تحت الوسادة ..

_لا أصدق أنك كنت تفعلين ذلك ياخالتي ؟!

ضحكت الجدة بحياء قائلة :

_بل صدقي ياعزيزتي .. كنت كمن أُصيب بلعنة ولم أعرف ماكنت أفعل .. لم أستطع الإمساك بقلبي وهو يبحث عنه كالمجنون بين أطراف القرية .. لم يكن وقتها يُفصلني عن الجنون سوى بضعت خطوات ياعزيزتي .. لكنه أمسك بيدي قبل أن أكمل خطواتي نحو الجنون ..

_هههههههه .. اللعنة على حب كهذا ..

_هههههههه .. بلى .. كنت ساذجة وضعيفة أمام كل مايتعلق به .. آه لو رأيته يا(سوزانا) لعذرتني وتقاضيت عن كل الأفكار المجنونة والنبض المتيم الذي كان يقودني إليه .. كنت أهذي بإسمه في سباتي ويقظتي, إعتزلت صديقاتي والكون كله وأنزويت في غرفتي أحلم وأفكر به .. صاح قلبي يناديه .. أصابتني حمى الحب والهوى .. ولازمت فراش العشق أحترق بشوقه ..

_ماذا فعل هو ؟

_عندما إستيقظت في أحد الليالي كان يجلس قربي .. إبتسمت لذلك الحلم الجميل وأغمضت عيناي .. سمعته يهمس بإسمي .. لم يكن حلما كان هو .. هو بعينه .. وإنتفضت .. كانت نافذة غرفتي مفتوحة على مصراعيها مما يدل على دخوله منها لأن الباب مغلقا من الداخل .

_هل تسلل الى غرفتك ليلا ؟ أنتي تمزحين بلاشك ؟ لماذا قد يفعل هذا ؟

_لأنه يحب .. لأن العشق إستفحل بقلبه وكبر بين جوانبه .. لأنه مغرم بي ..

_أنتما مجنونان بكل تأكيد ! قديما كان الحب أهون من شرب الماء ..

_لا لم يكن كذلك .. كل مافي الأمر أن الزمان يختلف والنوايا تختلف والقلوب تختلف .. لم نكن مثلكم ولا مثل هذا الجيل .. لم تكونوا مثلنا .. ولم تعيشوا زماننا ..

أنتم ترون أن هذا الزمان أجمل وأفضل ونحن نشفق عليكم لأنكم لم تروا شيئا من الحياة ولم تعيشوها .

_ربما تكونين على حق , ماذا حدث عندما تأكدتي أن ماترينه حقيقة وليس حلما ؟

_ كنت أحاول تغطية جسدي نصف العار لكنه لم يكن ينظر سوى الى عيناي .. عيناي فقط .. وكأنه يمارس نوعا من التنويم المغنطيسي علي .. أشعرني بالأمان .. أوحت لي عينيه بالثقة والدفء .. لم يقل سوى جملة واحدة "أتقبلين الزواج بي" .. لم أستطيع أن أبعد عيناي عن عينيه .. كنت مخدرة تماما وأشرت برأسي موافقة .. إبتسم بحب .. وقفز من النافذة ليتركني في ذهول تام .. بين الحلم واليقظة .. بين السعادة والطيران .. بين رقصات قلبي وهيام نظراتي .. بين أنا .. وهو.

أصل هذه الأسطورة

الإيمان هو الوجه الآخر للحقيقة ..

عندما ترغب في شئ بكل ماتملك من ثقة وإيمان ستناله بكل تأكيد ..

ضع ماتريده .. ماتريد أن تكونه .. ماتريد الوصول إليه في قلبك .. سيتحقق ..

هناك الآلاف ممن وضعوا أهدافا نصب أعينهم ولم يتراجعوا عنها .. لم ينهزموا .. لم يسمحوا لليأس أن يقتحم نفوسهم أو يسيطر عليها .. حاربوا .. بكل قوتهم ليكونوا مايرغبون أن يكونوه .. وكانوا ..

لايوجد مستحيل .. المستحيل نصنعه نحن في دواخلنا.. المستحيل نقيد به أفكارنا وطرقاتنا وحياتنا ..

المستحيل تبرير للفشل وللضعف والإنسحاب .. هذا هو المعنى الحقيقي لكلمة (مستحيل) ولاشئ آخر ..

كل من مروا قبلنا على هذه الأرض رغبوا في أن نتعلم ذلك .. في أن يُثبتوا لنا أننا نصنع الحياة التي نريدها ولن يصنعها لنا غيرنا .. أننا نحمل النور بأعماقنا ولاسلطة لأحد في إطفاؤه عدانا ..

الخوف نحن من ننصب له تمثالا عظيما .. علينا أن نبعده لا أن نسمح له بالتغلغل الى غُرف أحلامنا وكياننا والعبث بنا ..

هذه الأرض خلقت لنا جميعا لا لأحد بعينه .. هذه الثروات والأمطار والرمال والأنهار والجبال خلقت لنا جميعا ..

لايحق لأحد منع أحد من الحياة .. ولايحق لأحد التنازل عن الحياة من أجل أن يحياها آخرون ..

الإنسان قوة لو أدركها فقط لحول الأرض الى نعيم وسلام دائم بدلا من الجهل والحدود والحروبات ..

الإنسان هو وريث الأرض .. هو العقل .. ولاتوجد قوة على الأرض أعلى من العقل الذي يملكه ..

ما الذي يلزمنا لإستخدام هذا الذي يُدعى عقلا ؟

لايلزمنا سوى برمجته كما أراد الله له أن يكون .. لا كما أراد له الآخرون ..

مايملكه الإنسان لايملكه أي كائن آخر موجود في هذا التكوين الكوني بكواكبه ومجراته ومخلوقاته ومعادنه ..

رغم مرور الآلاف من القرون لم نستخدم ولا خمسون في المئة من العقل البشري؟! لم نستخدم ولا خمسون في المئة من ثروات الأرض ومعادنها ..؟ لم نفهم بعد الكوكب الذي نقطن به .. ولم نتوصل للكائنات التي تعمر الكون غيرنا؟ لم نعرف الطرق التي تؤدي الى العوالم الأخرى .. لم نستطع تفسير الظواهر الغريبة والخارقة .. لم نستطع معرفة (مثلث برمودا) ولا طبيعة (الإحتراق الذاتي) و(الأطباق الطائرة) ولا فجوات الأرض ..؟!

لم نستخدم 50% من العقل البشري الذي لايوجد إلا في تكويننا؟!

أقترح على العلماء والباحثين الذين يوجهون كل طاقاتهم نحو الفضاء والكواكب لإشباع فضولهم وفضول العلم أن يبحثوا عن مخلوقات عكس المكان الذي يتوقعون وجودها به ..

ماذا يوجد أسفل أرضنا ؟

هل نبحث عن كائنات أخرى فوقنا وهي من المحتمل أن تكون أسفلنا ؟

هؤلاء نحن حيث نستطيع أن نعيش ماذا عن الأماكن التي لم نكتشفها في كوكبنا بعد؟

ما السر في وجود القوى الخارقة والمخلوقات الفضائية والأساطير المبهمة؟ أي شئ إكتشفه السابقون في أرضنا غفلنا نحن عن إكتشافه ؟ وأي شئ نرغب الأن في إكتشافه عند إرسال السُفن الفضائية وخوض المجهول خارج الكوكب لمعرفة المزيد؟ فشلنا في تفسير ظواهر الأرض فغادرنا لتفسير الظواهر خارجها؟ عجبا ؟! الإنسان يعيش في أرض لها جاذبية , المعنى أن طبيعة تكوينه تجعله يتحمل الجاذبية هو والكائنات الأخرى دون أن تؤذيهم ؟ الأطباق الطائرة التي تهبط الى كوكبنا هبوطها يعني أن تكوين الأجسام والكوكب القادمة منه خالي من الجاذبية بحيث تؤثر عليه فلا تستطيع الأطباق الفضائية إلحاق أي أذى أو ضرر بالأرض لأنه فور دخولها مجال الجاذبية تعجز عن السيطرة على نفسها وتهوي على الفور , هذا ربما يشير الى أن ثمة كائنات أخرى تجري ذات الأبحاث التي يُجريها عُلمائنا في البحث عن وجود حياة آخرى وعوالم آخرى , فتعجز هي عن فهم الجاذبية التي تحيط بكوكبنا ونعجز نحن عن الوصول إليهم .

حياة جديدة

تسللت أشعة الشمس الى غرفة (ياقوت) مُعلنة عن صباح يوم جديد .. فتحت الصغيرة عينيها بتكاسل تستقبل الضوء القادم نحوها .. ثم إبتسمت عند رؤيتها الدمية الرائعة التي أحضرها لها (إياد) من المدينة ..

إلتقطتها ووضعتها على صدرها وهي تنظر إليها نظرات الأم الحنون لصغيرها :

_صباح الخير أيتها الرائعة .. هل آتى الصباح وطرق على بابنا .. إذا علينا تلبية النداء والذهاب لشرب الحليب ..

أعادتها الى مكانها وغادرت الغرفة تبحث عن الآخرين

لسبب أو لآخر علقت قصة (ماهر والتنين) بذهن الصغيرة فهما لم يبارحا مخيلتها منذ أن روت لها الجدة عنهما ..

باتت تعد الأيام لينتهي الإسبوعان ويُصبح بوسعها طلب القصة التي تريد ..

_طفلتي الحلوة إستيقظت ..

رفعتها خالتها إليها لتضمها وتُقبلها بحب .

_صباح الخير خالتي ..

_صباح الخير ياأجمل أميرات الكون ..

قالتها خالتها وهي تدغدغها بلطف والصغيرة تضحك بصوت مرتفع وتحتج ..

لم تقوم (سوزان) بإنزالها إلا أمام باب المطبخ حيث وجدت الجميع هناك بإنتظارها فهي آخر من يستيقظ بالمنزل وأول من ينام ..

جدتها تطهو طعام الإفطار .. و(إياد) يلعب بطائرته الجديدة فوق الطاولة ..(أيمن) يجلس بإسترخاء في مقعده مُنتظرا إكتمال المائدة ..

ألقت (ياقوت) عليهم تحية الصباح وذهبت لتنظيف وجهها وأسنانها لتعود مسرعة الى المطبخ ودُميتها تقبع بسلام بين أحضانها .. وإحتلت مقعدها بالقرب من (إياد) ..

مر اليوم سريعا .. مكثت (سوزان) والجدة بالمطبخ تطبخان وتثرثران .. أمضى الصغيران نهارهما يلعبان في حديقة المنزل بألعابهما الجديدة وقد إلتف حولهما الأطفال الآخرون .. بينما خرج (أيمن) الى الحقول لتوديع أصدقاءه ..

وأخيرا جاء اليوم الذي حلمت به والدة (أيمن) طويلا .. غادر إبنها القرية ليتلقى تعليمه ويعود إليها ناجحا متعلما قاموا بتوديعه وداعا حارا والدموع تنهمر أنهارا من أعينهم ..

مرت خمسة سنوات على غيابه .. إفتقده الجميع أكثر مما توقعوا .. نقص المنزل فردا ونقصت روح السعادة به فردا ..

حتى الصغيران لمسا حجم الفراغ الذي تركه (أيمن) في حياتهما .. كانا دوما يتعمدان إرتكاب الأخطاء حتى يوجههما ويشاركهما الرأي والحديث .. كانا يشعران أن هناك من يتتبع خطواتهما حتى لو أنكر ذلك ويخاف عليهما من الإصطدام مع الأطفال الأخرين ويوبخهما في أحيان كثيرة .. فلقد كان (إياد) شقيا مولعا بالزعامة وخوض غمار المجهول و(ياقوت) لاتتخلى عنه وتتبع خطاه ..

(أيمن) إنسان رائع رغم صغر سنه ونضوجه المبكر يقع المرء في حبه منذ الوهلة الأولى .. ولاتكف الجده عن تشبيهه بزوجها المتوفي .

لم ينقطع (أيمن) عن إرسال الرسائل لعائلته مع كل قادم الى القرية ليخبرهم بكل جديد في حياته مثل سفره الى أمريكا مع (إبراهيم) الذي ألح على إصطحابه معه ليكمل دراسته هناك تحت إشراف مباشر منه .. ولم تنقطع الأم والجدة عن مطاردة كل متعلم في القرية ليكتب لهما الخطابات للإبن الغائب وتوصيلها له مع رحيل أي شخص متوجه للمدينة ..

كبر الصغيران خلال تلك السنوات ومؤخرا لازمت الجدة فراشها وهي تشتكي من آلام المفاصل وتورم القدمين ..

بدأت المسافات تتباعد بين (ياقوت) و (إياد) الذي بلغ الأثني عشر عاما وصار يقضي النهار بأكمله مُتسكعا خارج المنزل مع رفقائه .. وإقتحمت (ياقوت) ذات الثمانية أعوام عالم النظافة والطبخ والغسيل لتخدم جدتها المريضة وتخفف عبء الأشغال المنزلية عن خالتها ..

كانت تذداد جمالا وفتنة كلما كبرت عاما تلو الآخر مما جعل جدتها تلازم عملية تحصينها من أعين الناس كل يوم ..

علاقة (ياقوت) بجدتها لم تكن علاقة طبيعية كانا روح واحدة وقلب واحد , منذ أن تفتحت عيني (ياقوت) على الدنيا لم تبصر أحدا غير جدتها التي منحتها حبا أنساها فقدان أي أحد آخر ..

كانت جدتها تلعب في حياتها دور الأم والأب والأخوات وكل الأحبة .

ورحلت الجدة عن الدنيا بعد أن إشتد عليها المرض وصرعها لتترك حفيدتها خلفها في مواجهة الحياة .

هذه هي المرة الأولى التي تقابل فيها (ياقوت) الموت وجها لوجه .. المرة الأولى التي تتعرف فيها على من أخذ والديها منها عن كثب .. ليخطف أمام عينيها أغلى إنسانة في الوجود .

كادت أن تجن .. لم تتوقع أنها ستعيش من دون جدتها يوما .. لم تتوقع أن تغيب .. لم تتوقع ذلك أبدا ..

إنهارت لفترة من الزمان أوشكت فيها على توديع الحياة هي الأخرى .. لكن ثمة قوة خفية منحتها دافعا لتبقى على قيد الحياة ..

ليس هناك من بوسعه تخفيف آلامها عنها ولاحتى خالتها وولديها , غضبت لأن جدتها تركتها ورحلت ولم تأخذها برفقتها ..

وعندما لم يتبق أمام خالتها (سوزان) حلا آخر لإخراج إبنة أختها من الحالة التي تمر بها حزمت جميع الحقائب وأغلقت أبواب الدار ورحلوا الى المدينة ..

مكان جديد .. حياة جديدة .. وأشخاص جدد قد يخفف بعضا من الصدمة ويشفي قليلا من الجروح ..

أول مافعلته (سوزان) هو إلحاق (ياقوت) بمدرسة البنات لتساهم بذلك في تحقيق حلمها بأن تصبح طبيبة.

لكن (ياقوت) لم تعد كما كانت .. إنهارت كل حياتها وأحلامها فوق رأسها وتركتها تنظر بذهول الى الحياة لاتصدق ماحدث.. لاتصدق أن هناك موتا قد يأخذ جدتها كما أخذ فرس الأمير .. وفارس ملكة التنانين والملكة .. لاتصدق أن هناك مرض يؤلم ويُشقي مثل مرض الأمير .. كانت مصدومة بشدة .. مذهولة لاتعي أن جدتها لم تعد موجودة بالفعل .. لن تتحدث معها .. لن تراها .. لن تروي لها الحكايات .. لن تنام بأحضانها..

منعطف خطير

تكفل (إياد) بتوصيل (ياقوت) الى مدرستها وإعادتها منها .. لم يُعدها الى طبيعتها حب خالتها العظيم لها ولا محاولات صديقها(إياد) المتواصلة لإضحاكها وإسعادها تقبل الجميع رغبتها في الإنزواء والإبتعاد إلا(أيمن) لم يستسلم ويكف عن المحاولة وهو يتحدث معها عبر الهاتف من أمريكا طوال اليوم .. لم يترك لها الوقت للتفكير في الآلام والأحزان وملأ كل وقتها بالمذاكرة والواجبات المدرسية فكانا آخر من ينام وأول من يستيقظ ..

بدأت الغيرة تنصب شباكها حول قلب (إياد) وهو يرى صديقة طفولته تهجر عالمه وتقضي كل يومها تتحدث مع أخيه عبر الهاتف ومواقع التواصل الإجتماعي .. لم يكن (إياد) يحب المدرسة ولا أي شئ يمت إليها بصلة.. وكثيرا ماتوسل إليه (أيمن) و(ياقوت) وأمه بكل الطرق ليدخل المدرسة لكن (إياد) ظل يهرب من كل مدرسة يتم تسجيله بها فقررت والدته إلحاقه بورشة قريبة من المنزل يتعلم فيها أصول مهنة تنفعه وقت الحاجة ..

رغم إستياءه من الورشة ورائحة الزيوت لكنه إستمتع بالعمل فيها أكثر من إستمتاعه بقضاء يومه جالسا على مقعد في فصل يستمع الى محاضرات وأقوال الآخرين .

يختلف(إياد) عن(أيمن) و(ياقوت) في حبه للزعامة والحرية أينما وجدت , منذ صغره وهو يكره القيود بشتى أنواعها لدرجة أن مواعيد الدروس والمدرسة كانت قيدا ثقيلا بالنسبة له , إنه من النوع الذي يعيش خارج نطاق الزمان يفعل مايحب ويترك مالايحب , كان يُدرك أن بوسعه تعليم نفسه وهو جالس في المنزل وأمامه

الكتب يقرأ منها ما لايتعلمانه(أيمن) و(ياقوت) في المدارس لذلك كانت الدراسة آخر همه ..

مرت السنوات .. نجح(أيمن) بتفوق وتم قبوله في كلية القانون بأفضل الجامعات الأمريكيه وأنتقلت(ياقوت) الى المرحلة الثانوية بخطى ثابتة ومعدلات عالية , وترفعت مكانة(إياد) في العمل بالورشة فصار المسئول عن العمال فيها و الآمر والناهي ..ثم بدأت الحياة تنعطف بثلاثتهم نحو منعطف خطير ..

(ياقوت) بشعرها الذهبي الطويل وعينيها الخضراوان الجميلتان وإنحناءات جسدها الفاتنة وهي تغدو وتروح امامهما بثياب المنزل التي ترسم جسدها رسما ..

قلقت الأم كثيرا وهي ترى نظرات إبنيها لإبنة خالتهما فهي تعلم أن جمال(ياقوت) يسحر الألباب ولامثيل له على ظهر الأرض .. وطالما خشيت عليها الجدة من فتنة هذا الجمال .. قلب(ياقوت) لم يشأ التفريق بين أبناء خالتها لكنه كان أكثر ميلا نحو(أيمن) .. ذلك المحامي المعسول الحديث الهادئ النبرات .. الصامت معظم الوقت ..

خبأت إحساسها بقلبها يوم عودته للمنزل في إجازته الجامعية وهما يجلسان بجانب بعضهما ليشرح لها ما تعسر عليها فهمه من الدروس ويُعالج مشكلتها المستعصية مع الحسابات والأرقام .. ثم يواصل قراءة كتب القانون الكثيرة التي يضعها بعناية فائقة على رفوف مكتبته ..

لم يلفت نظرها صوت(إياد) العالي ولاتصرفاته العشوائية فهي تعتبره دوما اخا وصديق طفولة ودائما ما يمرحان معا ويتسابقان في أرجاء المنزل بالرغم من أنهما لم يعودا أطفالا وكان السبب عادة أن(إياد) يختطف دفاترها المدرسية وكتبها ويرفض إعطائها لها حتى تجلس أمامه ليُحدثها عن يومه بأكمله أو لتحضر له كوب من القهوة عند عودته في المساء من الورشة .. لم تشعر بالفراغ بين جدية(أيمن) وهزلية(إياد) الذي لايكف عن إضحاكها هي وأمه في أبسط تصرفاته فهو شخصية درامية تجبرك روحها المرحة على الإنفجار بالضحك حتى في أعمق أوقات حزنك.

عندما يعود من الورشة وثيابه متلطخة بالزيوت لن يخلعها حتى تنتقل الزيوت التي بها الى أمه و(ياقوت) ثم يرمي بها في سلة الملابس المتسخة ويُبدلها ليخرج ثانية أو يعرض على(ياقوت) إصطحابها الى أي مكان ترغب في الذهاب إليه .. وتلك كانت أسعد لحظاتها .. عندما يأتي(إياد) منشرح الصدر الى المنزل ويطلب منها الخروج .. فهو يعرف كل جزء من المدينة ويقودها كل مرة الى مكان جديد ..

أجمل مغامرة خاضاها معا عندما رغبت(ياقوت) بركوب الدراجة ولم يكن مسموحا للفتيات ركوب الدراجات في الشوارع العامة .. عندها توصلا الى فكرة مجنونة وإرتدت ثياب(إياد) ولفت رأسها بشال ووضعت على عينيها نظارة شمسية كبيرة .. ذلك اليوم بدت كالرجال وهي تقود الدراجة وطافت مع(إياد) معظم أرجاء المدينة .. ليستقبلان عند عودتهما توبيخ (أيمن) وغضب(سوزان) ضد تصرفاتهما الطائشة وفرض عقوبة بعدم خروجهما معا مرة أخرى ولم يكن ذلك العقاب من(سوزان) سوى خوفها على إبنة أختها من تصرفات إبنها غير المسئولة ..

عاد(أيمن) الى الديار بعد تخرجه من الجامعة وبدأ بمزاولة مهنته لينطلق من نجاح الى نجاح .. في حين خطت(ياقوت) أول خطوة لها في كلية الطب .. وإحتفل (إياد) بإفتتاح ورشته الخاصة لصيانة السيارات والآليات ..

بين ليلة وضحاها صاروا شبابا مُفعمين بالقوة والحيوية والمكانة الجيدة في المجتمع.

كبر أبناء(سوزان) ليحملوا عن كاهلها عبء المسئولية فلم تكن تشعر لا هي ولا(ياقوت) بالنقص في أي شئ فكل مايطلبانه يُلبى فورا دون نقاش ..

كانت تصر على ولديها أن(ياقوت) أختهما ولا يجب أن ينظرا إليها غير هذه النظرة لكن للقلوب نظرة تختلف عن الواقع ..

لم يستطع أحدهما التنازل لأخيه عن حبه .. العلاقة التي تربط كليهما بها عميقة ووثيقة تمنعهما من الإبتعاد كلاهما لايستطيع العيش بدونها و (سوزان) لاتطيق فراقها لتبعدها عنها من أجل الحفاظ على إبنيها ..

ترعرع حب(أيمن) في قلب(ياقوت) يوما تلو الآخر وهي ترى مرافعاته وطريقة دفاعه المستميته عن المظلومين ..(أيمن) يُعتبر مثالا للشرف والنزاهة .. لم يكن من النوع الذي يقبل قضية يشك لحظة في أن من سيدافع عنه ظالم لامظلوم .. دوما كان نصيرا للمظلومين والبائسين والفقراء .. لم يكن بابه يوصد أمام محتاج لجأ إليه .. فهو كالأسد في غابته يخشاه الجميع ويحسب له ألف حساب .. فمن يكون على حق لايخاف سوى من الله ويسير واثق الخطى مرفوع الرأس شامخا في هذه الحياة .. كيف لا تغرم برجل صفاته أقرب للملائكة منه للبشر ..

تسلل الحب الي قلبها الصغير ليأخذها الى دنيا جميلة مليئة بالورود والحنان .. ليجعلها شاعرة ومرهفة وفنانة تتفنن في رسم لوحات من العشق لحبيبها وتخط أسمه على دفاترها كالمراهقين .. خرجت من طور الطفولة لتدخل طورا غريبا عليها جميل ومخيف في ذات الوقت يلهيها بالبعد حينا وبالقرب حينا آخر .. إحترفت لغة

الأعين وهي تنظر الى عيني حبيبها بهيام وولـه .. تعلمت ترجمة الكلمات التي لا تقال والإحساس بالحركات التي لاتترجم .. شعرت بأنها تملك أجنحة وتطير .

أصبحت تستحي من تصرفاتها الصبيانية مع(إياد) عندما يكون هو موجودا .. باتت تهتم بنفسها ومظهرها وعطرها وثيابها ليراها في أبهى الصور .. وتنتظر عودته من عمله بفارغ صبر حتى لو نام الجميع وتظاهرت مثلهم مغلقة باب غرفتها عليها تسترق وقع خطواته في منتصف الليالي وتسمع تنهيد يومه المتعب وتتمنى لو تسابق خطواتها إليه لتحمل عنه حقيبته و أوراقه وتطعمه وتغطيه من البرد.

شئ بها تغير لم تفهمه .. لم تتمكن من السيطرة عليه أو مواجهته وهو يكبر بأحشائها كلما إلتقيا ..

خشيت أن يعلم أحد ما يدور بخلدها وأولهم هو .. أرعبتها تلك الفكرة .. ماذا سيفعل أن علم بهيامها به؟

تدثرت غطائها بعد أن سمعته يغلق باب غرفته عند الثالثة صباحا ووضعت يدها على قلبها مرددة ..أن عليها نسيان كل هذه المشاعر ورميها بعيدا حتى لو إضطرت للإبتعاد عنه والذهاب بعيدا عن المنزل الذي لم يعد لها مأوى في الكون غيره .

يوم لايُنسى

ذات مساء شتوي جميل مر عليها(أيمن) ليصطحبها الى المنزل في طريق عودته من المحكمة .. إقترح عليها التوجه لقضاء ماتبقى من اليوم معا ووافقت بحماسة لأن كل ماحولهما يُغريهما بعدم تجاهل هذا الجو الجميل ذو النسمات الباردة المنعشة ..

توجها الى الحدائق العامة التي تبعد كثيرا عن المنزل وهما يستمتعان بمداعبة الهواء الطلق لوجهيهما وهو يقتحم السيارة من النوافذ المفتوحة طوال الطريق وحتى وصولهما .. ترجلا على أقدامهما متسكعين بين نوافير المياه والأراضي الخضراء الشاسعة بالحديقة ..

_هذا المكان يُذكرني بالقرية .

قالتها(ياقوت) متنهدة وهي تستند على السياج الحديدي المحيط بأحد نوافير المياة المتطايرة بجاذبية وسحر ..

أعاد(أيمن) النظر الى المكان حوله وقد لامسه صدق زكرياتها وإستند بدوره على السياج واقفا قربها تتأمل عينيه قطرات المياه المتطايرة وقال :

_أعلم أنك إشتقتي إليها .. لو كان بيدي لأخذتك الى هناك لكن خوفي عليك يمنعني من فعل هذا .

_ مما تخاف علي ؟

_من كل شئ يا(ياقوت) , من الزكريات المؤلمة , من الأحزان العابرة التي تركناها هناك قبل سنوات .

_ حياتنا كانت سعيدة وزكرياتنا جميلة يا(أيمن) .

_ هناك فقدنا كل شئ ..

_ وهل منحتنا هذه المدينة مانصبو إليه ؟

_ ربما لم تمنحنا أكثر مما طلبناه منها لكن وجودنا معا يكفي أن نكون على قيد الحياة .

_ (أيمن) أنت عملى للغاية وتفكر بطريقة تصيبني بالحيرة في أوقات كثيرة , أشعر أحيانا بأني أفهمك وفي أحيان أخرى تكون لغزا معقدا يصعب علي فهمه .

_الغريب في الأمر أنني كتاب مفتوح طيلة الوقت أمامك يا(ياقوت) يحق لك العبث بأي صفحة من صفحاته وكتابة ماتشائين بها .

_ كيف ذلك ؟

_بعد كل مابيننا تسألين؟ لا أحد يفهم نظراتي ويترجمها غيرك أنتي قريبة من قلبي ولك حق التصرف في(أيمن) ككل قلبا وروحا ..

_لا أفهمك , اليوم تقول كلاما مبهما.

_كل ما أقوله لكِ يحتاج الى قلب للإحساس به لا الى عقل ليفهمه ..

_ألا تخنقك هذه الثياب الرسمية التي ترتديها على الدوام ؟

_ تعودت عليها .. لاتشكل الثياب فرقا كبيرا بالنسبة لي أحب اللون الأسود .

_أنت لاتتغير أبدا يا(أيمن) , عندما كنا صغارا مازلت أذكر الجدية المخيفة التي كانت على ملامح وجهك , مازلت لوحدك لاتحتاج لأحد تصادق الجميع ولاصديق لك يُحبك الجميع ولاحبيب لك مازلت تحب العزلة والوحدة والإبتعاد عن الناس والضجيج مازلت تسكن عالمك الخاص وتضع الحواجز والحدود حول نفسك ..

_ألم أقل إنكِ أكثر من يفهمني ويهتم لأمري .

_ ربما.

_حياتي ليست ملكي ياغاليتي تعودت على المسئوليات منذ وقت مبكر وتخليت عن التفكير في نفسي منذ عهد بعيد .

_لكنك إنسان من حقك أن تعيش حياتك كأي إنسان طبيعي ..

_تعودت مع مرور الوقت على تقبل كل الأشياء وفعل كل مايسعد أمي .

_ماذا إن طلبت منك خالتي يوما الزواج من فتاة لاتحبها هل ستمنحها حق إختيار شريكة حياتك كما منحتها حق التصرف في كل ماتملكه .

_إن كان هذا مايُسعدها حتما لن أعارض وسأنفذ كل رغباتها

_حتى إن كانت ضد رغباتك ؟

_حتى إن كانت ضد رغباتي .. لا أحد يشعر بما عانته أمي غيري أنا يا(ياقوت) .. سأظل ممسكا بيدها مُسخرا حياتي لسعادتها مادمت حيا ولن أدعها تشعر بمرارة ولاحسرة في يوم ما ..

_لا أدري ماذا أقول ؟ لا أعلم إن كان ماتفعله صوابا أم خطأ ؟

_هذا قدري .

_ليس قدرك .. أنت من إخترت العيش في كل هذا يا(أيمن) .

_الظروف أرغمتني على هذا الإختيار .. كنتما صغيران على فهم ماكنا نعيشه في تلك المرحلة ومازلتما صغيران أمام صعوبات الحياة وقسوتها .

_ الحياة ليست قاسية الى الحد الذي تتصوره أنت .

_بل أشد قسوة , حينما تخرجا أنتي و(إياد) من العالم الطفولي الذي تعيشان به ستدركان كم هي قاسية .. كل ما أخشاه هو أن تضعفا أمامها .

_لماذا تعتقد على الدوام بأننا أطفالا .. لم نعد كذلك بوسعنا تحمل صعوبات الحياة ومواجهتها وسنثبت لك يوما بأننا لن ننهار أمام الصدمات التي ستسببها لنا الحياة ولن نتغير عن حبنا لها وتفائلنا بها .

_أتمنى ذلك .. ولكن الطريقة المتهورة والمستهترة التي تعيشان بها تجعلني أقلق عليكما يوما تلو الآخر ..

_لأنك عملي للغاية لاترى في حياتنا سوى التهور والإستهتار ..

_ حسنا ..

_أتحبان أن ألتقط لكما صورا ؟

إلتفت كلاهما الى مصدر الصوت .. لم يكن سوى أحد المصورين الذين يتجولون بين الحدائق لإلتقاط الصور للراغبين بذلك .. نظر(أيمن) مستفسرا عن رغبة (ياقوت) التي تحمست لفكرة التصوير مع(أيمن) والإبتسامة تزين ثغرها .. ووقفا قرب بعضهما على أهبة الإستعداد لإلتقاط صور تذكارية مُشبعة بالإبتسامات والحركات البهلوانية .. ثم توجها الى المطعم لتناول الطعام الى حين إستلام الصور.

إختارا طاولة منعزلة تقبع بإستسلام في ركن المطعم وجذب (أيمن) المقعد بلباقة لتجلس عليه (ياقوت) .. دوما كانت تأسرها لباقته وتعامله الراقي المتميز للمرأة فمنذ أن تفتحت عينيها عليه لاحظت بأنه يعامل كل النساء في حياته بشكل يزرع حبه في القلوب ويجعله في نظرهن أميرا .. فحتى شكله وطريقة مشيته توحى بأنه أمير بالفعل .. حدثت(ياقوت) نفسها بذلك وهي تجلس أمامه .. قبل أن يُعيدها سؤاله عن نوعية الأكل الذي تفضل تناوله الى أرض الواقع ..

نظرت الى قائمة الطعام وقالت :

_ أفضل تناول البيتزا ..

وضع القائمة على الطاولة وقال موجها حديثه للنادل :

_ أجلب لنا بيتزا بالخضار لو سمحت ..

كانت تحبها بالخضار كما طلبها تماما .. عندما كان يدير لوحة الأرقام بهاتفه للإتصال بأحدهم .. كانت هي تصارع دقات قلبها وتتوسلها كي لاتفضح أمرها .. وعينيها تتأملانه رغما عنها وهو يتحدث بإسلوبه الهادئ الوقور .. أحضر النادل الطعام وإنتظرته حتى أنهى مُحادثته .. ثم إستعدا لتناول البيتزا بعد أن أبعدا السكين والشوكه لأنهما يفضلان دوما تناول الطعام بأناملهما وتلك العادة لم يشتركا فيها وحدهما فحتى (إياد) و(سوزان) يُفضلانها .

وأثناء تناولهما للطعام روى لها عن مواقفه الطريفه في مهنة المحاماة وكان يقلد كل موقف بطريقة جعلتها تضحك بعلو صوتها وكأن لا أحد سواهما في المكان .

مر الوقت سريعا .. وأحضر المصور أمانتهما وسلمها لهما في ظرف أنيق وأخذ نقوده وغادر .. كانت الصور رائعة ومُعبرة أُعجب بها كليهما .. وإنتهت الجولة بسلام وحان موعد العودة الى المنزل بعد قضاء ذلك اليوم الجميل الذي سمح به وقت (أيمن) المزدحم .

دون وداع

إنتظرت(ياقوت) حتى غادر الجميع المنزل .. ذهب (أيمن) الى المحكمة و(إياد) الى الورشة وذهبت خالتها الى السوق مع جاراتها ..

وضعت ثيابها في الحقيبة .. أخذت كتبها وكل الدفاتر التي عليها خط (أيمن) حينما كان يشرح لها الدروس كتبت ورقة الى أهل المنزل تحتوي على :

" (أمي)(أيمن)(إياد) سأذهب في رحلة مع صديقاتي ولأنني أعلم بأنكم لن توافقوا على ذهابي بمفردي قررت الرحيل معهن بعد خروجكم لأنني أرغب في عمل شئ بنفسي بعيدا عن فرض وصايتكم وخوفكم الزائد علي .. ياقوت "

ثم وضعتها فوق الطاولة الكبيرة التي تتوسط مجموعة من المقاعد ووضعت آنية الزهور فوقها تاركة جزء كبير من الورقة ظاهرا ليتمكنوا من رؤيته.

حملت حقيبتها وسارت بلا وجهة ولا هدف .. هي تحفظ هذه الطرقات عن ظهر قلب .. طالما تجولت بها مع(إياد) .. تقاطرت الدموع من عينيها وهي تحدث نفسها:

_ أين أذهب ..؟ أين أذهب ..؟

ثم نظرت الى السماء بعينين دامعتين :

_ جدتي .. جدتي .. أنا تائهة .. أنا حائرة .. لقد تركت المنزل ياجدتي .. تركته لأنني أحببت(أيمن) .. أين أذهب ياجدتي ؟.

وفجأة خطر ببالها منزل جدتها في القرية .. فتوجهت نحو محطة القطار مسرعة لتصل القرية قبل حلول الظلام .. وحجزت لنفسها تذكرة وصعدت لتجلس على مقعد بجانب النافذة أخذت تنظر منه الى الخارج بضياع

أغلق(إياد) الباب وإندفع نحو الطابق العلوي صائحا وهو يصعد درجات السلم كل درجتان معا:

_(ياقوت) .. (ياقوت) .. (ياقوت) تعالي سريعا لن تصدقي .. إشتريت لك دراجة ومساحة أرض كبيرة لتقودين فيها دراجتك ..

وصل الى باب غرفتها .. طرق الباب وإنتظر .. لم يُجيب أحد .. طرق مرة وأثنين وثلاث وأربع .. فتح الباب .. لم تكن (ياقوت) هناك ..

_ يا إلهي أين ذهبت هذه الفتاة المشاكسة ..

نزل الدرج مسرعا كما آتى .. مناديا وعينيه تتجول في أرجاء المنزل بحثا عنها .. ثم لمح الورقة على الطاولة توجه نحوها مُكررا نداءه وإتسعت عينيه الى آخرهما عند قراءته الرسالة ..

_ ماذا .. رحلة ؟! .. آه .. يا(ياقوت) .. لماذا لم تخبريني ؟

طوى الورقة في قبضة يده قبل أن يلقى بها على الأرض ويخرج متوجها الى جامعة (ياقوت) ليبدأ رحلة البحث عنها ..

وضعت (سوزان) الأغراض بجانب الباب وهي تدعو جارتها للدخول .. ثم هتفت بأعلى صوتها :

_ (ياقوت) (ياقوت) .. أين أنتي ياصغيرتي ..

طلبت من جارتها الجلوس وهي تحمل الأكياس وقبل وصولها الى المطبخ صاحت مرة أخرى :

_ ياأميرتي الصغيرة كفاك نوما .. إستيقطي يوجد من يسأل عنك هنا ..

ثم واصلت طريقها نحو المطبخ وعادت تحمل كوب ماء بارد لجارتها .. تعثرت الرسالة بقدمها فحملتها لتلقي بها في سلة المهملات قائلة بإحتجاج :

_ هؤلاء الأولاد لايحرصون على نظافة المنزل أبدا (ياقوت) تمضي ساعات وهي تنظفه ثم يرمي أولئك الأثنان أي شئ على الأرض دون مراعاة لتعبها ..

إبتلعت الجارة الماء متسائلة :

_ يبدو بأن إبنتك خارج المنزل ..

نفت (سوزان) سريعا :

_لا اليوم لديها عطلة من الجامعة .. جدول محاضراتها فارغ سأذهب لرؤيتها أخشى أن تكون مريضة فهي لاتنام حتى هذا الوقت المتأخر من النهار ..

كانت الغرفة مرتبة والسرير أيضا ولا وجود ل(ياقوت) هبطت (سوزان) الدرج قائلة لجارتها في حيرة :

_لا أدري أين ذهبت .. أنتي تعرفين أطباع الشباب .. ربما خرجت مع صديقاتها الى مكان قريب ..

_أجل .. أجل .. حتى بناتي يخرجن في بعض الأحيان مع صديقاتهن دون علمي .. لاتقلقي ستعود .. أنتي تبالغين في خوفك على (ياقوت) يا (سوزان) إمنحيها بعضا من الحرية لتتعلم شيئا من هذه الحياة بعيدا عنك.

جلست سوزان متعبة وهي تقول بصوت خالطه القلق :

_حاولت كثيرا .. لكن خوفي وقلبي المتعلق بها يرفضان مطاوعتي .. (ياقوت) صبية صالحة وقلبها مثل الطفل الرضيع .. أخشى عليها من العالم الخارجي والمجتمع مازالت صغيرة عندما تكبر قليلا سأتوقف عن القلق عليها ..

_أنتي تبالغين يا (سوزان) من يسمعك تتحدثين عن (ياقوت) لا يظن أنها طالبة جامعية بل طفلة في حضانة.

ثم ضحكتا و(سوزان) تؤكد لجارتها :

_إنها بالفعل طفلة .. (ياقوتتي) لم تكبر بعد يا(حليمة) ستظل على الدوام في نظر أمها تلك الطفلة الجميلة ..

لم يترك (إياد) مكانا لم يبحث فيه عن (ياقوت) وهو يبرز صورتها أمام كل من يراه نفت جميع صديقاتها وزميلاتها في الجامعة عن معرفتهن مكان تواجدها .. ولم يجد أحد يعلم بشأن الرحلة التي تحدثت عنها في رسالتها ..

عاد في المساء الى المنزل متأملا أن تكون الرسالة مزحة أو دعابة من (ياقوت) ..

هبت والدته نحوه فور دخوله متسائلة :

_هل (ياقوت) معك ؟

_ ألم تأتِ بعد ؟!

_ تأتِ من أين ؟ أخبرني ؟

غيمت سحابة من الخوف والقلق وجهه وهو ينظر الى أمه قائلا بتوهان :

_تركت رسالة تقول فيها بأنها ستذهب في رحلة مع صديقاتها ..

_ ماذا ؟ لماذا لم تخبرني ؟

_ المُخيف في الأمر أن جميع صديقاتها لم يرينها اليوم ولا وجود لأي رحلة ياأمي.

تهالكت (سوزان) على أقرب مقعد وهي تضع يديها على رأسها بطريقة كارثية :

_ أين ذهبتِ ياأبنتي ؟ أين أنتِ .. أين ذهبت؟

ثم أمسكت بتلابيب إبنها قائلة :

_ ماذا فعلت لها أيها الشقي من منكما ضايقها من؟

_أمي .. أقسم لك بأنني لم أفعل لها شيئا .. أتيت قبلك لإصطحابها معي لكنني لم أجدها ربما علينا إبلاغ الشرطة ..

نظرت (سوزان) الى إبنها بفزع .. ودارت الأرض تحت قدميها ثم سقطت فاقدة الوعي ..

حملها (إياد) الى المستشفى مسرعا .. وكانت المفاجأة أن (سوزان) مصابة بمرض الضغط وإزدادت نسبة الخطورة على حياتها بعد الصدمة التي تلقتها من غياب (ياقوت) .

لم يكن هناك طريقة للتواصل مع (أيمن) لأن سكرتيرة مكتبه أخبرت (إياد) أكثر من مرة عند إتصاله أن أخيه في المحكمة ولن يعود قريبا .

إهتزت الأرض تحت القطار وعلت أصوات الصرخات وقبل أن تستوعب(ياقوت) مايحدث كان القطار يهوي نحو فجوة عميقة في باطن الأرض وكأن جاذبية عظمى تجره جرا الى أعماق الفجوة .. وأبتلعت الأرض القطار بجوفها كأن لم يكن يوما ..

القطار .. وكل راكبيه .. ومافيه .. إبتلعته دون إبقاء أي أثر له .

الظلام

جلس كل منهما بمقعدين متباعدين في غرفة والدتهما بالمستشفى التي تم حجزها بها لحين تتمكن من إسترداد عافيتها ..

خيمت خيوط الظلام على المدينة .. كذلك الظلام الذي خيم على قلب(سوزان) وولديها .. لم يتركا مكانا لم يبحثا فيه عنها ..

لم يتمكن(إياد) من كبت دموعه وإظهار مشاعره وهو يحتضن أخيه باكيا بحرقة .. لم يتعود(إياد) في حياته إظهار حقيقة عكس حقيقته .. بكى بكل مايملك من دموع في عينيه .. لكن بكاء القلب أكثر إيلاما وهذا ماحدث مع(أيمن) الذي ظل متماسكا

صلبا كعادته وقلبه ينصهر شلالات من الدموع والألم .. كانا مقيدان تماما لاشئ بوسعهما فعله لإستعادتها وهما لايعلمان أين ذهبت لتعود ؟ وهل ستعود أم أن رحلتها بلا عودة؟

بعد مرور ثلاثة أيام من البحث المتواصل إنتشرت الأخبار عن إختفاء قطار بركابه في منتصف المسافة بين العودة والذهاب الى القرية .. وصدر إسم(ياقوت) من ضمن ركاب القطار الذي لم يوجد له أثرا وكأن الأرض إنشقت وألتهمته ..

كان أمرا غريبا منافيا لكل القوانين وقدرات العقل البشري على التفكير والإستيعاب.

إختفاء قطار بكل مافيه هكذا ؟ ودون أي مقدمات أي عقل قد يصدق ذلك ؟ ثمة فصل ما غامض وناقص في هذه الحقيقة لم يكتمل بعد!؟

(أيمن) و(إياد) وأقارب الركاب الآخرين لم يُصدقوا تلك الخرافة لأن خط سير القطار كما هو لاوجود لأي خلل في طريق سيره يشير الى إنقلاب أو أي حادث آخر إذا أين ذهب القطار ؟!

لا أحد يعلم عنه شيئا ؟! تحدث كل من أراد التحدث في هذا الموضوع وحلل البعض وأكد البعض الآخر ونفى آخرون وظلت جميعها أحاديث وأفواه تتحرك بما لاتعلم وتظن بأنها تعلم ؟!

لم يخبرا والدتهما بما حدث فهما لم يصدقا بعد تلك الرواية حتى بعد تتبعهما لمسار القطار بنفسيهما والبحث في كل الأماكن المجاورة لخط سيره ..

تحرك القطار من المحطة ولم يصل؟ لم ينقلب؟ لم ينحرف عن مساره؟ لم يحترق؟ لم يوجد له أثر ؟

كل القطارات وصلت فلماذا لم يصل هذا القطار ؟ سنوات والطريق يأخذ المسافرين ويعود بهم لماذا هذه المرة ؟ لماذا هذا القطار ؟

هجر سكان المدينة سفر القطارات بعد سماعهم لتلك الحادثة الفريدة من نوعها .. إزدادت تساؤلات الأم عن (ياقوت) وإزدادت معها أكاذيب (أيمن) و (إياد) فلم تجد الجواب الشافي منهما ولم يجدوا مفرا من إبعادها عن الحقيقة وعزلها عن العالم الخارجي فقالا لها أن (ياقوت) سئمت من الحصار المفروض عليها في المنزل لذلك تركتهم وغادرت وما زالا يبحثان عنها في كل مكان ولن يغمض لهما جفن حتى يُعيداها الى منزلها من جديد ..

أكان هذا بصيص أمل أم حقيقة ؟

يبدو بصيص أمل عند (أيمن) وحقيقة في قلب (إياد) .. ذلك الأمير الذي أقسم يوما أن ينقذ الأميرة وحان الآوان ليفي بوعد قديم قطعه في أيام طفولته حتى لو ظل طوال السنوات الماضية مجرد حلم طفولي ..

حقق(أيمن) حلمه وحلم والدته وحققت(ياقوت) حلمها وحان الوقت ليحقق(إياد) حلمه وينقذ الأميرة من الأشرار ويأخذها الى بر الأمان ..

قد يبدو هذا الكلام سخيفا أو فصلا في رواية خيالية لكنه حقيقة في حياة(إياد) الذي سيحارب الدنيا بمن فيها لإنقاذ(ياقوت) وإحضارها من المكان الذي ذهبت إليه مهما كان هذا المكان وبغض النظر عن خطورته ..

هي تعلم يقينا أن(أياد) طالما هو على قيد الحياة لن يُصيبها أي مكروه ولن يجرؤ ذلك المكروه على الإقتراب منها إلا بعد موته ..

ذات يوم حمل حقيبته ووعد والدته و(أيمن) بأنه ذاهبا للبحث عنها ولن يعود دونها , رافقته دعوات والدته وكلمات أخيه بأنه قد فقد عقله عندما قرر البحث عن شخص من الإستحالة أن يعود ..

لكن نظرة(أيمن) المحامي المتعلم وبراهينه ودلائله لم تمنع شقيقه المُتسلح بالإيمان والعزيمة والإرادة التخلي عن القضية التي وهب حياته ثمنا لها وهو يقول بتصميم زعزع كل معتقدات أخيه :

_ سأعيدها ياأخي وإن لم أعدها معي لن أعود الى هنا أمي أمانة في عهدتك لاتتركها ..

_ إذهب .. إهرب من نفسك ومن الحقيقة أينما تريد لأنك جبان لكن عُد بسرعة لأن هناك من ينتظرك ويحتاج إليك وهي أمي ..

_ أمي ليست بمفردها .. أنت معها .. لكن(ياقوت) بمفردها في مكان ما .. ولن تبقى طويلا لأني لن أسمح لها بذلك ..

_ كما تريد .. إذهب .. لكن لاتنسى كلماتي لك .

عانقه (إياد) وذهب ..

لامستحيل مع الحب كل الأشياء ممكنة وعادية عندما نحب وكل حب يختلف عن الآخر هناك حب منطقي وهناك حب مناقض للمنطقية كحب هؤلاء الأثنان لإبنة خالتهما ..

أحدهما يحبها .. لاشك في ذلك .. يحبها بالمنطق والقوانين وطبيعة البشر وهي تحبه أما الآخر يحبها حب لايؤمن بمنطق ولا قانون ولا طبيعة وهو من سيفعل لأجلها مالم تستطيع الأساطير فعله ولم يستطيع بشر سرده وتدوينه في كل الكتابات .

الرابط بينهما أقوى من أي رابط آخر .. عقليتهما متشابهة رغم البُعد الثقافي والعلمي .. وهذا الرابط الذي هو أقوى من الرابط بينها وبين (أيمن) أو أي فرد آخر سيوصله إليها هو يؤمن بذلك لا بالقوانين والطبيعة .

أدرك أن ثمة أمر غير طبيعي حدث مع(ياقوت) وركاب القطار إستوعبه عقله الذي لم يتعلم مثل(أيمن) وأولئك البائسين الذين فقدوا الأمل والتفسير لإختفاء القطار ..

طوال شهر كامل سار(إياد) على ذلك الطريق الذي إختفى في جزء ما منه القطار .. لاشئ غريب .. لاشئ ملفتا للنظر .. لاشئ ألبته ؟

إرتاد أماكن العلماء والمفسرين والمشعوذين لم يترك أحدا يمكن أن يتوقع منه المساعده لم يذهب إليه ..

وقرر الذهاب الى منزل الجدة لأخذ قسط من الراحة قبل أن يعاود رحلة بحثه ..

كان ركوب القطار مخاطرة ولم يقبل أي سائق بالمخاطرة في ذلك الطريق مما أجبر(إياد) على البحث عن سائق يغرقه بالمال ويكون هذا السائق لا يهاب الموت ليقوده عبر ذلك الطريق .. وكانت الدهشة الكبرى أن وصل القطار بسلام الى محطته الأخيرة مع الكثير من الأسئلة والإستفهامات ..

مخاطرة شجاعة من قلب شجاع يؤكد أن لاشئ خاطئ في مسار القطار .. إذا ماالذي حدث لذلك القطار الذي إختفى ؟

فتح(إياد) أبواب المنزل القروي المهجور منذ رحيلهم منه بعد وفاة الجدة وتوجه الى غرفة(ياقوت) .. كل ما بها كما تركوه تماما قبل الرحيل وطرأ على باله سؤلا وهو على مقربة سنتمترات من النوم يغالب النعاس متمددا فوق فراش(ياقوت) الصغير وساقيه الطويلتان مُتدليتان من طرفه ..

الجدة من أين كانت تأتي بكل تلك القصص الخرافية ؟ لماذا تؤكد لهما دائما في حكاياتها وجود مخلوقات إسطورية وعوالم غريبة ؟ مثلا في قصة ماهر والتنين أين ذلك المكان الذي ذهبا إليه والذي لم يستطع أعدائهما معرفته ؟ كيف أودعت ملكة التنانين قوتها عند إبن فارسها ؟ وماذا حدث بعدها ؟ من هو ناما ؟ من هو؟ وهب مذعورا وهو يعكس إسم فارس ملكة التنانين (أمان) ..

_ ياللهول ..(أمان) إنه أسم جد(ياقوت) .. إسم زوج الجدة .

أمسك رأسه بكلتي يديه وهو يستطرد بعينين زائغتين :

_كيف .. كيف يكون فارس ملكة التنانين زوج جدتي ؟ هذا يعني أن الملكة منحت قوتها لوالد(ياقوت) الذي توفى .. يعني أن(ياقوت) هي حفيدة فارس الملكة الوحيدة والوريثة لقوة الملكة وجدها .. هذا يعني أن قبر الملكة في مكان ما هنا من حقل جدي ..

قبل أن يندفع(إياد) نحو الحقل للبحث عن قبر الملكة خطر بباله إقتحام غرفة الجدة وصار يبحث في كل قطعة منها كالمجنون وهو يردد :

_ لابد من أنها تركت شيئا ما هنا عن هذه الحقيقة وعلي إيجاده .

قلب الغرفة رأسا على عقب ورمى كل ممتلكاتها على الأرض قبل أن يرفع بصره بيأس نحو السقف ووقع بصره على شقا مستقيما به .. أحضر أطول منضدة في المنزل وضعها فوق سرير الجدة وساعده طول قامته في الوصول بسهولة الى السقف ..

كما توقع لم يكن الشق سوى مخبأ سري خبأت به الجدة صندوق صغير من الحديد حمله برفق بين أنامله وجلس على طرف السرير وفتحه ..

جهر الضوء القوي المنبعث من الصندوق عينيه فأغلقهما .. إجتاح الضوء عقله وقلبه .. دمه وعروقه .. وإنتشر ببطء في سائر جسده مانحا إياه القوى التي حبستها تلك الأم المتوسلة وزوجة فارس الملكة لكي لاتمنحها لإبنها حتى لايلحق بوالده .. وإحتفظت بها في مكان لايخطر على بال أحد ..

الحب وحده من قاد(إياد) لإكتشاف ذلك السر المخبأ منذ سنوات طويلة ولم يكن هو نفسه يعلم ماحدث له .

بعض الأمل

طال إنتظار(أيمن) ووالدته ل(إياد) الذي إختفى مثلما أختفت (ياقوت) ..

كثيرا ماتسلل اليأس والضعف الى نفس(أيمن) لكنه ظل متماسكا من أجل والدته التي لم يتبقى لها أحد غيره ..

كان في حيرة من أمره أين يبحث عنهما ؟ من يسأل ؟ أين ذهبا ؟ كادت دماغه أن تنفجر من الأسئلة التي لا إجابات شافية لها ..

ماذا حدث ل(ياقوت) وماذا حدث ل(إياد) ؟ هل هما على قيد الحياة ؟ هل هما بخير أم لا ؟ أين هما؟ بين أمه وعمله والحياة أصبح مثل إنسان آلي يتحرك وفق متطلبات الموقف والظروف والمكان والزمان بلا أي شعور أصبح مجردا تماما من كل

الاحاسيس .. هو يعلم أن (إياد) إنسان غير مسئول لكن هي كيف فعلت به ذلك؟ كيف هجرته بكل هذه القسوة؟ كيف طاوعها قلبها على الرحيل عن حبه وعالمه؟ كيف؟ كيف؟

(ياقوت) التي أحبها وطوع المستحيل لأجلها لم تكلف حتى نفسها عناء إخباره برحيلها .. أي ذنب إقترف في حقها لتعاقبه بهذا الشكل؟ أي خطيئة إرتكبها في حياته لتبتعد (ياقوت) عنه ولايعرف لها مكانا؟

ذبلت مقلتيه من البكاء عليها في الليالي الطوال .. ضاع صوته وهو يناديها بين الطرقات؟ إنطفأ نور قلبه وهو يتوسل إليها لتعود كل ليلة فقد تركت له من الزكريات مايبقيه حيا لمئة عام؟ كيف يمكنه تكذيب ماكان يراه في عينيها من حب ولهفة؟ كيف يمكنه تجاهل أن (ياقوت) مغرمة به لحد الهوس والحلم به في وضح النهار؟ كيف يمكنه نسيان أن (ياقوت) تركته خلفها بكل برود وغادرت الى الأبد؟ ألم يكن بوسعها الإنتظار قليلا؟ كان سيخبرها بكل مايحمله بداخله من عشق كان سيبدد كل مخاوفها ويضمها الى قلبه بدلا من أن تتهرب من ملاقاته وهما يقطنان في منزل واحد ألم يكن بوسعها التمهُل قليلا حتى يُخبرها بأنه بات يعود متأخرا الى المنزل كل تلك الليالي حتى لايُحزنه ملاحظة تهربها منه وإبتعادها عن مكان تواجده بأنه كان يتأخر حتى لاتشعر هي بالحرج ويُفضح أمر حبها في وجوده ..

ألم يكن بوسعها الإنتظار قليلا حتى يُخبرها بأنه يشعر نحوها كما تشعر هي نحوه بأنه يفهم لغة عينيها ودقات قلبها .. رعشة يدها وإشارات جسدها .. يفهم كل ماتمر به ويبحث لهما عن حل حتى لو كان الهرب بعيدا عن هذا المكان ..

كيف طاوعها قلبها على هجره؟ ألم تكن تفهم أحاديث عينيه بما يكفي؟ ألم تكن تترجم دقات قلبه وأنفاسه وهما منغمسان في شرح يدوم لساعات طوال فقط لكي لاتبتعد عنه لكي يقترب رأسيهما وتتعانق أنفاسهما وتلتقط أنفه رائحتها وتداعب عينيه خصلات شعرها الذهبية .. ألم تشعر بحبه لها؟ أكان يضع كل هذه الأقنعة على وجهه فلم تتبين براكين عشقها الثائرة بداخله؟ أكان قويا بهذا القدر لدرجة لم تشعر فيها بإضطراب وجدانه؟ أكان منشغلا وبعيدا عنها للحد الذي لم يلاحظ فيه فكرة هروبها من حبه وإختفائها من عالم يوجد به؟ لماذا رحلت؟ ألأنه لم يعطها سببا لتبقى؟ هل يئست منه ومن حبه الى الحد الذي أجبرها على الإفتراق عنه وحزم حقائبها والرحيل؟ هل ضيق عليها الخناق لتترك حياته ومنزله وتذهب الى الشارع؟ تأخر عليها فلم يعد بوسعها إنتظاره لبضع ...؟ بضع ماذا؟ كلمات؟ أم أعوام؟ أم أيام؟ هل كان سيخبرها حقا عن حبه؟ متى وبعد بضع ماذا؟

أغمض عينيه متألما عند وصوله لهذه النقطة وهو يهمس :

_الأن صرت أعلم .. كان من حقك الرحيل ياحبيبتي .. كان من حقك أنا من أجبرك عليه أنا وحدي ولا أحد غيري لن ألوم سواي على فقدك فقد كنت السبب في كل ماحدث وماسيحدث لك ..

_ (أيمن) .. (أيمن) ..

تحرك(أيمن) لتلبية نداء والدته التي لم تكن تفارق غرفتها إلا نادرا بعد أن أحضر لها خادمة تدير كل شؤون المنزل وتلبي كل طلباتها في حالة غيابه ..

فتح الباب وهو يرسم إبتسامة حنونة على ثغره وجلس قربها ممسكا كفها النحيف براحة يده قائلا برقة متناهية:

_أنا هنا ياأغلى البشر .. بماذا تأمرين ..

شملته أمه بنظراتها الدافئة وهي تتسائل :

_أين إخوتك .. ألم يحضروا بعد ؟

_ لاتقلقي عليهما أنتي تعلمين أن هذان الأثنان طائشان وسيعودان بعد بضعة أيام كما ذهبا إنها مسألة وقت فقط ياحبيبتي ..

_ لقد طال غيابهما يا (أيمن) لم يتعودا النوم ليلة واحدة خارج المنزل فكيف يحتملان البقاء بعيدا كل هذا الوقت؟

_إن طيش الشباب ومغامراته يفعل بالمرء أكثر من هذا ودم المغامرات الذي يغلي بعروق(إياد) و(ياقوت) أعلى مما توقعت .. لم يعودا طفلين لتقلقي عليهما إنهما قويان وقادران على مواجهة كل الصعاب التي تعترض طريقهما أؤكد لك ياأمي بأنك قمت بتربية أقوى وأشجع وأعند أثنين في هذا الكون ..

_أدعو الله أن تكون مغامرة شبابية كما تقول يابني .. لقد زرعت جدتك في عقليهما أفكارا سخيفة وحشت دماغيهما بقصص كبرت معهما وإختلطت مع تكوينهما أحمد الله كثيرا لأنك لست مثليهما وإلا لكنت الأن بمفردي ..

تمدد قربها وهو يضمها إليه قائلا بحب :

_لن أتركك أبدا ياأمي .. كما أنهما سيعودان إليك قريبا جدا .. ألاتصدقيني ؟

_ أصدقك ياحبيبي .. أصدقك .

ثم أضافت :

_ أريد أن أخبرك أمرا لكن عدني أن يبقى بيننا حتى يأتي أخويك ..

_ أعدك ..

_ عندما يعودان الى المنزل أول ماسأفعله بهما هو ربطهما بقيود لن يستطيعا الهرب منها .. سأزوجهما في أول أسبوع يأتيان به وأخلص منهما ..

ضحك (أيمن) للفكرة ..ثم تسائل :

_ من يقبل بالزواج من مجنونان لايجيدان في حياتهما غير الهروب المستمر ؟

_ لاتقل على أخويك مجنونان .. إنهما صغيران وعديمي المسئولية لذلك سأقوم بتربيتهما من جديد ..

_ حسنا لنبدأ ب (إياد) أولا .. أي فتاة إخترتها له؟

_مارأيك في إبنة صديقتي التي كنت تقيم عندها في سنوات دراستك الأولى ؟

_ من منهما .. على ما أذكر لديها إبنتان ؟

_ أجل .. سأزوجه من الصغيرة (أنهار) إنها تعجبني ولاشك في أنها ستعجب أخاك؟

_ ربما .. من يدري ؟

_ حتى إن لم يوافق سأجبره على الزواج منها .. لن أترك له خيارا هذه المرة ليهرب ..

_ سأحرص أنا بنفسي على إجباره لفعل ذلك وسأساندك في تحقيق ماتريدين ..

_أما (ياقوت) فسأختار لها شابا وسيما من أبناء الحارة وأول المُتقدمين لخطبتها هو إبن جارتنا الأستاذ بالمدرسة(وجد) .. أنت تعرفه .. إنه أستاذ مهذب ويحترمني الى أبعد الحدود .. سأرسل لهم موافقتي غدا لن أضمن مستقبلها مع أحد غيره .. وهكذا سيكون منزلها قريب مني ..

_ أنت تبالغين في هذا تزوجينها من إبن الجيران حتى لاتذهب بعيدا ؟

_ما الخطأ في هذا؟ أنا أعرفه جيدا وأعرف والدته وأسرته وجميعهم على إستعداد لإستقبال إبنتي الجميلة في منزلهم ومعاملتها أفضل معاملة لن تجدها في أي منزل آخر ..

_ يبدو لي تفكيرا منطقيا وبهذا أتخلص من عبء تدريسها ويتولى زوجها الأمر عني .. مارأيك؟

ضحكت والدته بنشوة وكأن أحلامها قد تحققت بالفعل ثم أردفت :

_ وهكذا نتخلص منهما ونشغلهما بحياة جديدة ينسيان فيها الفراغ الذي يعيشانه ..

_ أنا معك في كل ماتقولينه ياأمي .. إتفقنا ..

وشرعت (سوزان) تروي لإبنها التغييرات التي تنوي إحداثها في المنزل تجهيزا لعرسهما وبأنها ستبدأ فيها من الغد حتى لايُضايقها الوقت عند عودتهما ..

ووافقها (أيمن) على كل فكرة إقترحتها وكان يُبدي رأيه بين الحين والآخر حتى لاتشعر بأنه يجاملها أو يُجاريها ليُخفف عنها صدمة غيابهما ..

في قرارة نفسه كان يعلم أن أحلام أمه لن تتحقق هذه المرة لأن(ياقوت) و(إياد) قد لايعودان أبدا .. لكن كيف سيقول لها ذلك ولسانه عاجز عن نطق هذه الحقيقة التي تجثم بكل ثقلها على قلبه؟ هو بكل قوته وتماسكه وصلابته لم يحتمل تصديق هذه الحقيقة فكيف ستحتملها والدتهما؟ حتى متى سيكذب؟ كم من السنوات سيمثل عليها؟ وهل سيصمد حتى النهاية أم سينهار يوما ويلقي كل مابصدره إليها ويتقاسما الجرح العميق معا؟

من أجلها

فتح (إياد) عينيه ببطء وإستكشف المكان بلمحة سريعة وإستنتج بأنه ربما على جزيرة ما .. هناك أشعة شمس وسحب وصخور .. كما أنه يسمع خرير المياه .. وأضاف بعد أن تحسست أناملة الأرض التي يتمدد فوقها إنها رمال ناعمة الملمس وقف على قدميه بحذر وعينيه تدوران حول المكان الذي لايدري كيف وصل إليه ..

البحر خلفه .. وغابة كثيفة أمامه .. تحسس جسده بيديه ليتاكد من أنه (إياد) الذي يظن تماما وتسائل :

_كيف حدث وأنتقلت من غرفة جدتي الى جسدا مرميا على رمال شاطئ ربما ..؟

ثم أضاف :

_ (إياد) ياصديقي .. على مايبدو إنك لم تخرج بعيدا عن الأرض لكنك في مكان مجهول .. ومن يعلم ماينتظرك في مكان مهجور كهذا ؟

مشى بخفة على الرمال كمن يمشي بهزلية على حبل رفيع في سيرك .. خطوة خطوة وكأنه يخشى أن تسمع ذرات الرمل صوت خطواته ..

_ أنت ..

وقف في مكانه مرعوبا وهو يحملق بعينيه الى الغابة أمامه .. وحدث نفسه ..

_أنت؟ أيقصدني هذا الصوت الضخم البالغ الخشونة .. أنا بهذه الأنت ؟

وشعر بالخطر يدب فى أطرافه .. الماء خلفه وغابة قد تكون مكتظة بالآف من الحيوانات المفترسة أمامه .. لقد إنتهى أمرك ياصديقي ..

قالها(إياد) وهو يدور للخلف نصف دورة ليواجه مصيره .. وهو يرفع يديه الى أعلى في طريقة إستسلامية ..

لم يصدق مارأت عينيه .. دقق النظر جيدا .. ثم أنفجر ضاحكا وهو يسير نحو مصدر الصوت الذي أوقفه :

_أنتما .. ياللهول .. لقد أخفتماني .. ظننت لبرهة بأنني ميت لامحالة في هذا اليوم من عمري .. إذا أنتما تختبئان هنا؟

تبادل الأثنان اللذان يقفان على مسافة ليست بالبعيدة عنه نظرات الدهشة والذهول وهو يتقدم نحوهما بثقة وإطمئنان بعد أن كاد يموت رعبا .

_ أنت .. توقف مكانك وإلا أحرقتك بناري .

لم يشكك (إياد) في إمكانية إرتكابه مايقول فجلس على الرمال متنهدا بإرتياح وهو يجيب :

_ لن تستطيع فعل ذلك .. لأنني أملك قوة والدتك أيها التنين .

شلت ثقة (إياد) المفرطة حركتهما وجعلتهما ينظران الى بعضهما ببلاهة وكأنهما لايُصدقان أن هذا الكائن المُسترخي أمامهما لايهابهما ولايقلقه ظهورهما في وجهه .

_كيف وصلت الى هنا ؟

_ تعالا .. لأروي لكما .. يبدو بأنني أواجه غبيان لايستخدمان العقل مطلقا .. آه أعذرني لأنني تناسيت أن هذا الضخم حيوانا من دون عقل لكن ماذا عن الرجل بجانبك .

_ أنت .

إمتلأت عيني (ماهر) غضبا وهو ينطق كلمته تلك مُحذرا بينما حمل التنين كل ثقله وإقترب من (إياد) ليشتم رائحته ويتفحصه ثم يقف على مقربة منه و (إياد) يقول ساخرا :

_ ياللحذر والجُبن .. عار عليك أيها التنين ماتفعله .. هل إنتهيت من شم رائحتي .. أعتذر لأنها قد تبدو مُقززة فلم أغتسل بعد ..

_ من أنت وماذا تفعل هنا ؟ (قال التنين)

_ أنا(إياد) وما أفعله هنا هو البحث عن(ياقوت) وأدرك بأنك لن تستخدم دماغك الذي يُخيل إلي أنه يبدو صغيرا جدا مقارنة بحجمك هذا .

_ أتعلم بأنك وقح ؟

_ أجل .. أعلم .

_ لن أهتم كثيرا .. هل تعنى (ياقوت) حفيدة الفارس (أمان) ؟ (قال التنين)

_ أصبت .. هي بعينها .

ثم أضاف بغير جدية :

_ هل رأيتها في مكان ما هنا ؟

_ أين ذهبت ؟ ولماذا تبحث عنها ؟

_ هيي .. كف عن الأسئلة .. الأن حان دوري .. هل أنت التنين وهذا (ماهر) ؟

_ ماذا ؟

_ بحق السماء ماذا تفعلان هنا ؟ ألم تذهبا للحرب؟

_ ماذا ؟

_ هذا المكان لم يروق لي أبدا .. لن أستطيع التعاون معكما .. سأذهب للإغتسال عند تلك المياه .. أقترح عليكما تشغيل دماغيكما لحين عودتي ..

نهض وتوجه نحو الشاطئ ونظراتهما التي مازالت تمتزج دهشة وغضبا تخترق ظهره وهما ينظران إليه تارة والى بعضهما تارة أخرى ..

إقترب (ماهر) من تنينه قائلا بحسم :

_أخبرني مايحدث على متن هذه الأرض سريعا؟ من غريب الأطوار هذا وماذا يفعل في أرض المحاربين ..

_أنظر الى عيناي سأعرض عليك حياته كاملة حتى هذه اللحظة .

أطاعه فارسه الذي يعلم بمقدراته الخارقة والتي تتضمن فيما بينها هذه المقدرة .. تلاقت عيناهما ومرت أمام (ماهر) حياة(إياد) و(ياقوت) والجدة والام و(أيمن) لحين وصول(إياد) الى أرضهما ..

أغلق (ماهر) عينيه مُخزنا تلك المعلومات ثم قال :

_ لماذا (إياد)؟ هذه القوى من حق (ياقوت) وحدها هي وريثة جدها لا هو؟ ماأعلمه أن التنانين لاتمنح قوتها بسهولة حتى لو وجدها ذلك الشخص أو طلبها .. كيف أنتقلت إليه ؟ كيف يُعقل هذا؟

_حتى أنا لا أعلم يا (ماهر) .. كل ما أعرفه أن والدتي كان بوسعها العيش لفترة طويلة من الزمان بعد إصابتها لكن موت (أمان) فارسها جعلها ترفض الحياة .. والدتي تتمتع بقوى غير كل القوى الموجودة في التنانين على مر العصور ولهذا إستحقت قيادة فصيلتها عن جدارة .. كانت تعشق (أمان) فارسها وعائلته عشقا يفوق حد الوصف مما جعلها ترهن كل قوتها لتلك العائلة فقط لا غيرها .. وهي إبن فارسها وإبنته وزوجته التي رفضت إستعمالها وحبستها في مكان لايعرفه غيرها .. يوجد رابط وثيق بين(ياقوت) و (إياد) فهي تناديه على الدوام وتحتمي به وتثق بأنه سينقذها .. لايوجد فرق بينهما ولا إختلاف في تبادل أملاكهما لذلك وافقت بعقلها الباطن منح القوى ل(إياد).

_ كيف ذلك؟ مارأيته يثبت بأن ثمة حب يربطها بشقيقه(أيمن) فأي رابط بينها وبين هذا؟ كان عليها مناداة (أيمن)؟

_لا أعلم .. إنها تحب أخيه بالفعل لكن قلبها مرتبط بقلب(إياد) وعقلها مرتبط بعقله أنهما أقرب الى بعضهما روحا وقلبا وهي تقوده إليها دون أن يدري أحدهما بذلك.

_ هي لاتعلم حتى أنه يحبها ..؟

_ لكنها تعلم بأنه الرجل الوحيد الذي سيحارب الكون من أجلها .

_ ألاتثق بمن تحب وتودع كل ثقتها في رجل آخر؟

_ ذلك الذي تقول عنه آخر هو صديق طفولتها الذي لم تفترق عنه يوما .. الثقة التي بينها وبين من تحب متذبذبة لسبب ما لكن الثقة التي بينها وبين (إياد) تمتد الى مالانهاية .

نظر(ماهر) بفخر الى(إياد) الذي مازال يتلاعب بالماء وهو يقول :

_ أمر غريب .. وكأنه يسمعها حقا .. ترك كل شئ خلفه وخاض غمار المجهول بحثا عنها وهو يوقن أن مخاطرته في البحث عنها قد تودي بحياته .. هل سيتزوجها؟

رد التنين :

_ لا لن يتزوجها .. (ياقوت) ستتزوج من الفارس لا الأمير؟ ستتزوج من فارسي لا(أيمن) ولا(إياد)؟ لقد رأيت كيف بهرك جمالها؟

_أنا؟ ماذا فعلت أنا لأستحق الزواج بها بينما فعل هذا الأمير مالايستطيع بشر فعله من أجلها؟

_ فعلت أكثر مما فعل يافارسي .. عندما أتت ألينا (ياقوت) وهي طفلة لتشارك في حربنا أنت رفضت التضحية بحياتها وتعريضها للخطر وأمرت بإعادتها الى حياتها الطبيعية لتلتقي بأهلها ثانية ..

_ كان هذا واجبي .

_ هذا الواجب جعلك تستحقها لأنها كانت ستبقى معك على هذه الأرض رغم طفولتها ورغم كل الظروف كنتما ستكبران معا وتقعا في غرام بعضكما وتتزوجا .

_ على هذا المصير أن يتغير أيها التنين .

_ لم أفهمك ؟

_إنها فتاته .. حبه وحياته .. من الأنانية أن أغتصب أملاك الآخرين .

_هو لايفعل ذلك حتى تحبه أوتتزوجه .. هو يفعل كل هذا لأنه يؤمن أنها بمفردها في مكان ما تنتظره لينقذها ويحميها يفعل ذلك لأنه حارسها وأمانها ولأنها تعلم بأنها ستكون بخير ما دام(إياد) حيا ..

_هذا هو الحب يارفيقي .. تعلم منهما .. هذا هو وليس أي شئ آخر .. أن تشعر حبيبتك رغم الخطر والخوف بأنك معها .. أن تغمض عينيها في قلب الجحيم وتنام لأنها تثق بأنك قادما لإنتشالها منه .. أي حب أعظم من هذا لا أنا ولا(أيمن) نساوي شيئا أمام هذا القلب المؤمن الشجاع .. أمام هذان العاشقان ..

_ عليك أن تصدق بأنها لاتحبه ؟

_ بل عليك أنت أن تصدق بأنها تثق به .. تشعر بالأمان معه وتحتمي به إنه مصدر قوتها وسر وجودها في الحياة ومن يُبقيها حية في ذلك المكان الذي إختفت به .. إنها تؤمن به دون سائر رجال الكون وقلبها يناديه في كل وقت داهمه الخطر وعينيها تبقى يقظة تنتظر قدومه هو ولاتتوقع أي شئ من أي أحد آخر غير(إياد) ماذا تسمي هذا يارفيقي؟ عندما لاتتوقع (ياقوت) من حبيبها حمايتها من كل شر في الدنيا وتتوقع العكس من (إياد)؟ ماذا تسمي هذا؟ عندما تكون واثقة أن لا أحد سيأتي بحثا عنها إن غابت إلا (إياد)؟ ماذا تسمي هذا؟ إنها تؤمن أن لا أحد ستتوقف حياته بعدها إلا(إياد) ماذا تسمي هذا؟

_لم نكتشف له إسما بعد؟! لكن كلمة حب ضئيلة للغاية أمام موقف كهذا!

_ إذا من يستحقها برأيك ؟

_ هو .. وبكل جدارة .

_ سيظل إيمانهما ببعضهما نورا لن ينطفئ حتى إن لم يُكتبا في علم الغيب لبعضهما حتى إن كانت مع زوجها سيظل(إياد) أميرها .. وحتى إن لم تكن زوجته ستظل(ياقوت) أميرته التي لن يسمح أن يُصيبها مكروه وهو على قيد الحياة .

_ علينا إذا مساعدته في العثور عليها .

_ يُسعدني أن أقدم هذه الخدمة لرجل نبيل مثله .

قهر الخوف

وكأن القطار قد عبر أربعة عشرة طبقة أو أكثر من الطبقات الأرضية قبل أن يتناثر الى قطع صغيرة في الفضاء مثلما تناثرت الأجساد التي عليه .

من حسن حظ(ياقوت) أو من سوء حظها أنها كانت الناجي الوحيد من حادثة القطار شعرت كمن يطوف السموات على ظهر نسر كبير سريع ألقى بها على أرض رملية وإختفى .

عندما فتحت عينيها كانت أمام مفاجأة لم يُخيل إليها يوما أن تراها ..

كائنات غريبة ذات أشكال وأحجام مختلفة وألوان متعددة تتطلع إليها بأعين بارزة ومُخيفة وتتهامس مبتعدة عنها في خوف وحذر .

من حق من الخوف في موقف كهذا؟ (ياقوت) أم الكائنات التي تلتف حولها؟

سمعت همهمة ولم تفهم شئ سوى أنها كائن غريب بالنسبة إليهم سقط من الفضاء الخارجي .

الأرض نفس الأرض .. السماء هي السماء .. كل شئ متشابه .. لكن الفرق الوحيد أن هذه أرض أخرى لاتمت بأي صلة للأرض التي أتت منها ويسكنها كائنات لايمكنها وصفها بكلمة في موقف كهذا عدا أنها مرعبة وقد تنقض عليها في أي لحظة .

أغمضت عينيها وقد أدركت بأنها النهاية ..

إحتار سكان المنطقة في هذا المخلوق الذي سقط عليهم من السماء .. أهو لعنة؟ أهو كائن فضائي من كوكب آخر غير كوكبهم؟ ماهذا الكائن الدموي المُغطى بالكثير من اللحوم وعلى رأسه خيوط ذهبية طويلة؟ ما كوم اللحم الذي سقط على أرضهم دون أي سابق إنذار؟

قام البعض منهم بتبليغ الجهات المسئولة ليُسارعوا الى إكتشاف هذا الشئ قبل أن يموت ويحاولوا معرفة المكان الذي سقط منه .

وصل العلماء والباحثون في كسر من الثانية ليحملوا (ياقوت) مثل الجثمان ويضعونها داخل زجاج شفاف يعزلها عن العالم الخارجي .. خوفا منها أو عليها من يدري؟

كانت كمن يعيش في حلم .. ماهذه الأرض الشبيهة بأرضها؟ كل شئ هنا يؤكد بأنها سقطت على أرض بها سماء وتراب وأشجار وأنهار .

أرض بنيانها وعمرانها من كنوز ثمينة لم تخطر على بال بشر .. شوارعها من الألماس والذهب واللؤلؤ وأغلى الكنوز التي تعتبر ثروة ثمينة في أرضها وإبتسمت

بسخرية وقد خطر لها أن سكان أرضها لو علموا مايوجد بهذه الأرض لهجروا أرضهم وقدموا للسيطرة عليها وإحتلال ثرواتها بدلا من التنقيب بين البلاد عن البترول .

تسائلت إن كانت هذه الكنوز هي أرخص شئ في هذه الأرض وتستخدم في البناء والعمران فما هو أغلى الثروات فيها ؟

عندما تذكرت الموقف الذي هي فيه مرت على بالها تساؤلات عديدة وهي في صندوقها الزجاجي ذاك يأخذونها معهم الى مصيرها المحتوم .. ماالذي سيفعلونه بها؟ وهل سيطبقون عليها تلك الأبحاث التي يُجريها العلماء في أرضها على المخلوقات الفضائية التي تسقط عليهم سهوا من موطنها كسقوط(ياقوت) الى هذه الأرض ذات السُكان الذين تعجز قواها الخائرة في الهروب منهم ويفشل عقلها في تحديد أي ملامح أو معلم بارز بهم .. وكما توقعت تماما حافظوا عليها كشئ ثمين وهم ينقلونها الى معامل إختباراتهم .

إنحدرت الدموع على خديها عند رؤيتها ذلك الكم الهائل من الأجهزة والمعامل و..وعلمت بأنهم لن يتركونها إلا جثة هامدة .. ثم يقومون بتحنيطها ووضعها تمثالا في أحد متاحفهم .

أدركت بأنهم سيأخذون عينات من كل مكان في جسدها قد يقتلعون عينيها .. قد يتركونها داخل هذا الصندوق الزجاجي المعدوم من الاكسجين فتختنق وتموت ولن يعتقها حتى موتها من الجرائم الفظيعة التي سيرتكبونها في حق جسدها من تحليل وتشريح وغيره مما تسمح به معاملهم وعقول علمائهم .

لقد دفعت الثمن الذي تستحقه .. من أجل حبه هي هنا الأن تموت وهو يزاول حياته متقبلا أمر رحيلها بكل صبر ويقين .. كعادته دائما .. هي تعرف كم هو قوي لايهزه حتى خبر موتها ورحيلها عن الدنيا .. قد يزرف دموعه ثم سينساها بعد فترة قد تطول وقد تقصر بعدها سيتزوج بكل بساطة مراعاة لمنطقيته ومبادئه .. قد يدعو لها بالرحمة والمغفرة يوما وقد يكف عن فعل ذلك مع إرهاق عمله وحياته العملية المكتظة .. أما خالتها فستحزن عليها حزن الأرض بمن فيها وستنهار وتشعر بذنب لاحدود له لأنها لم تحافظ على أمانة أختها ستعيش خالتها مع الذنب والإشتياق واللهفة لرؤيتها ولن تنساها .. ستظل وفية لها لأنها إبنتها ولن تكف عن تكرار إسمها وتذكرها في كل موقف .. لكن (إياد) سيموت إن فقدها لابد من أنه يبحث عنها الأن في كل مكان .. لابد من أنه سيُصاب بالجنون لو سمع خبر موتها أو إختفائها , (إياد) .. آه .. يا(إياد) دوما كنا معا لم نفترق يوما .. مازلت أذكر كل

لحظة من حياتنا يا(إياد) , قلبك مليئ بالرحمة والأمان لدرجة تشعرني بالراحة والطمأنينة .. عزائي هو أنت يا(إياد) .. لا أحد سيهزه أمر رحيلي مثلك .. أتعلم .. أخشى عليك كثيرا أخشى على قلبك الرقيق من التوقف بعدي .. لاتموت يا(إياد) .. أنا هنا .. خائفة ويائسة .. هل تسمعني .. أنا بمفردي من دونك يا(إياد) أخوض مغامرة الموت وحدي من دونك .. هل تسمعني؟ .. (إياد) ليتك لو كنت هنا أنا بحاجة إليك .. تعال لتنقذني منهم هل ستأتي يا(إياد) هل ستأتي .. هل ستأتي؟

جلس ثلاثتهم(إياد) و(ماهر) والتنين لوضع خطة محكمة لإنقاذ(ياقوت) من المكان الذي توجد فيه , مقدرة التنين ساعدتهما في رؤية(ياقوت) وهي تخترق حدود أرض أسفل أرض البشر قبل أن يفقد قابلية الرؤية لمعرفة ماحدث لها بعد سقوطها .

تسائل (إياد) بصوت مُهتز :

_ هل مازالت على قيد الحياة ؟

نظر التنين الى أسفل بحزن وشرود وهو يُجيب :

_ حتى الأن .. نعم .

كاد قلب (إياد) أن يتوقف ..

_ ماذا تعني ؟

_ أعني بأنها داخل معاملهم وستخضع لكل إختباراتهم.

_ أي إختبارات؟

فرت دمعة من مقلتي (إياد) وهو ينظر بنفاذ صبر الى التنين .. الذي رد عليه :

_التي تخضع لها الكائنات الفضائية والغريبة في أرض البشر لمعرفة نوعية المخلوق الساقط على أرضهم وأظن بأنها أكثر خطورة وتطورا منها .

_ ياللهول .. سيقتلونها .

_ هذا إحتمال مؤكد .

تدخل (ماهر) قائلا :

_علينا التحرك فورا وإقتحام حدود تلك الأرض(إياد) يجب ألا تنهار على الأقل الأن ستكون بخير .

قال التنين :

_لاتنسى يا(ماهر) بأننا بعيدون للغاية من أرض البشر وتلك الأرض التي تضم(ياقوت) أسفلها يلزمنا وقت طويل للوصول إليها .

ثم نظر الى(إياد) الذي بالكاد يحاول تجميع قواه حتى لاينهار مُفكرا قبل أن يسترسل:

_ (إياد) .. أنت تملك قوى والدتي الملكة وهي قوى لاتضاهيها قوى ستعاونك كل الموجودات على أرض البشر للوصول الى (ياقوت) .. حتى الأرض ستفتح لك أكثر فجواتها أمانا لتسقط بسلام على الأرض الأخرى أسفلها .

برقت عينيه بتصميم وأمل وهو يقول :

_ كيف أفعل ذلك ؟

_لن تفعل شيئا سوى إستغلال القوى التي بداخلك أنت قادر على السفر عبر الأزمنة والأمكنة قادرا على التحليق بسرعات هائلة وخرافية عبر الكون ماعليك فعله لإنقاذ(ياقوت) هو إيمانك بقوة الملكة وتحويل نفسك الى الملكة والأن .

_ ماالذي تقوله أنت؟ هل جُننت؟ أنا(إياد) وليس أمك؟

_ كنت(إياد) لكن إن أردت إنقاذها عليك تنفيذ أوامري لأنك الأن أثنين في واحد .. الملكة و(إياد) معا ..عليك أن تعرف كيف تستخدمهما .. صدقني .. إفرد جناحيك وحلق بعيدا لإستعادة (ياقوت).

من فرط جدية التنين صدق (إياد) أن بإمكانه التحليق فبسط زراعيه وحاول أن يطير لكنه فشل ..

_مادمت تشكك في الأمر فلن تنجح عليك قيادة عقلك والسيطرة عليه .. أغمض عينيك وقل من أعمق نقطة بعقلك أنا أملك قوى الملكة ويمكنني الطيران تذكر أن من أتيت لأجلها الى هنا ستموت إن لم تسرع في تخليصها من بين أيديهم أنت الوحيد القادر على فعلها لأنها تناديك وتستنجد بك .. وليس بوسع هذه القوى مساعدة أحد سواك وإلا لكنت آخذتها منك وذهبت لإنقاذها .

أغمض عينيه وردد تلك العبارات بتصميم .. ملأت ملامحها كل جزء في عقله .. عيناها ..وجهها البرئ .. ضحكتها .. مغامرات الطفولة والصبا .. دموعها .. صوت إستنجادها .

_ أنا قادم .. لن أسمح لهم بآذيتك .. لن أسمح لهم بذلك لن أسمح لهم بلمس شعرة واحدة منك ياأميرتي لاتخافي أميرك قادم لإنقاذك ..

في لمح البصر كانت ملكة التنانين تعود الى أرض البشر لتختفي مرة أخرى وتسقط الى الأرض التي توجد(ياقوت) في جزء منها دون أن تتمكن كل الأقمار الصناعية والأجهزة التي وضعها البشر من تفسير الضوء الذي سقط من السماء وإختفى.

عند وصول الملكة حدود تلك الأرض صار بإمكانها الرؤية بعمق وتحديد المكان الذي توجد فيه(ياقوت) بوضوح .

لم يكن هناك أصعب من إختراق قوانين ذلك الحصن المُدجج والمُجهز بأدوات لم تتوصل إليها إختراعات العولمة الحديثة بعد .. ولاشئ أخطر من إجتماع عقل (إياد) وقوى الملكة في جسد واحد .

إختفت الملكة في كهف مُظلم قرب أحد الأنهار وهي تستعرض أمامها القلعة المحصنة ومن فيها كمن يستعرض لعبة مسلية على شاشة كمبيوتر أمامه .. وأخيرا قررت تحويل نفسها الى رئيس تلك الدولة الذي سيذهب بعد دقائق معدودات لإلقاء نظرة على الكائن الذي تم العثور عليه وهو(ياقوت).

لم تتمكن(ياقوت) من فتح عينيها خوفا من أن تجد نفسها داخل آلة أو مصيبة غير الصندوق الذي حشروها فيه وصل الى أذنيها صوت بعيد يُطالب بإخراجها الى مكان آخر .. نبرات هذا الكائن كانت تتقطر حنانا شعرت معها وكأنه شخص قريب من قلبها .

بدأت تفقد الأكسجين وتخدرت كل أعضائها وحواسها وقبل أن تفقد وعيها همست برجاء :

_أحتاج إليك(إياد) .. لماذا لاتشعر بي .. أنا خائفة .. سأموت يا(إياد) سيقتلونني .

غابت عن الوعي .. تلك كانت آخر كلمات قالتها وهي في ذلك الصندوق الزجاجي المُغلق بإحكام .. ووجوه الكائنات الغريبة التي تملأ كل المكان آخر ما ألتقطته عينيها .

دون أن يتمكن أحدهم من معرفة مايحدث إختفى الرئيس والكائن بغتة .. جميع المنافذ مغلقة .. ماالذي حدث؟ كيف إختفيا بهذه السرعة؟ وقبل أن يتمكنوا من إجابة تلك الأسئلة وصل الرئيس الحقيقي وفي كسر من الثانية بدأت كل قوات تلك الأرض تشن هجوما ضاريا على ملكة التنانين و(ياقوت) .

_لاتتوقف يا(إياد) إبتعد من هنا أحمل(ياقوت) الى الأرض .. سنتولى بقية المعركة .

هتف(ماهر) بذلك من فوق التنين الذي أطلق كل أسلحته على الأعداء .. مع السهام التي تردي كل من يُصادفها قتيلا والتي أنطلقت من بين يدي(ماهر) الذي يبدو بأنه يعرف أعداءه جيدا ونقاط ضعفهم بل وحتى أسمائهم .

لمحهما (إياد) وهو يرتفع للأعلى مودعا تلك الأرض بعد أن أخذ أمانته التي وقعت بين أيديهم سهوا لا عمدا.

الأن أدرك تلك المهمة التي يقوم بها التنين وفارسه منذ سنوات وهي حماية البشر ومساعدتهم .. غادر حدود تلك الأرض وهو يتمنى لهما التوفيق والفوز في حربهما.

مرة أخرى لم تشعر تلك الأجهزة بعودته عبر فجوة أخرى تقود الى أرض البشر وهو يرتفع ويرتفع ليسقط على حقلهم في القرية و(ياقوت) التي حررها من الصندوق الزجاجي تنزلق بجانبه ولم تفق من غيبوبتها بعد .

أعاد(إياد) نفسه الى طبيعته وتحرر من قوى الملكة ثم حمل(ياقوت) الى مستشفى القرية قبل أن يتصل بالمنزل لإخبار والدته و(أيمن) خبر عثوره على(ياقوت) .

لم يصدق(أيمن) مايقوله(إياد) وهو يهرع بأقصى سرعة الى مستشفى القرية مع والدته .

عندها فقط أيقنت الأم أن(إياد) وفى بوعده لها .. كما أيقن(أيمن) أن أخيه ليس طائشا ولا عديم المسئولية .

إستسلم جسد(ياقوت) للنوم الطويل وهو يرتعش بين الآونة والأخرى وسط الأجهزة أخبرهم الطبيب بأنها تعرضت لصدمة حادة أدت الى دخولها في حالة عجز الأطباء عن فهمها .. وعندما سألهم عما تعرضت له والذي أوصلها الى هذه الحالة المتأزمة لم يرد عليه أحد .. توجهت نظرات التساؤل نحو(إياد) الذي ظل يؤكد لهم بأنه وجدها مُلقاة على الحقل لكن الطبيب ألح على تكذيبه وهو ينهال عليه داخل غرفة مكتبه في إجتماع مغلق بسيل من الأسئلة :

_أنت تكذب هذه الفتاة بقيت فاقدة للأكسجين لفترة من الوقت ومرت بظروف غيرعادية تسببت في تغيير تكوينها الداخلي كإنسان يجب أن تخبرني الحقيقة وإلا فلن نتمكن من مداواتها وستعيش حياتها خائفة من شئ ما بين هذه الأجهزة .

_أتفهم ماتقوله ياسيدي .. لكن مالايمكنك أن تفهمه أنت هو أنني أقول الحقيقة .. كانت مُلقاة على الحقل عندما عثرت عليها ولم أفعل شيئا سوى إحضارها للمستشفى إنها إبنة خالتي وقد ترعرعنا معا في منزل واحد لو كنت أعلم شيئا عما تقوله لأخبرتك به .

_ إذا ليُخبرني أحد ماالذي حدث لهذه الفتاة لتصل الى هذه الحالة؟ مما هي خائفة لترفض العودة الى الحياة؟

_ إن كانت المسألة تتعلق بالخوف إترك لي أمر علاجها إذن .

_ماذا تعنى؟ إنها مرعوبة بشدة قد تموت في أي لحظة.

_إسمح لي بالدخول الى غرفتها سأبقى معها بضعة أيام وسيزول خوفها .

ضحك الطبيب بسخرية قائلا :

_ وهل سيفعل جاهلا مثلك مالم يستطيع طبيب مثلي فعله؟

_ أجل .

_ هذه خرافة .

إقترب منه(إياد) مشيرا بيده الى رأس الطبيب وهو يقول بهدوء متجاهلا التعب الذي يسري ببطء الى جسمه :

_ الخرافة تنبع من هنا .

ثم حول يده مُشيرا الى قلب الطبيب وهو يسترسل :

_ والإيمان ينبع من هنا .

_ هل بإمكانك التوضيح أكثر ..؟

_أحاول أن أثبت لك بأن هذا الأمي الذي يقف أمامك سيشفي من عجز الأطباء عن شفاءها أتقبل الرهان .

رد عليه الطبيب بتصميم وجدية :

_ أقبل بلاشك .. أراهنك بأني سأترك هذه المهنة إن فعلتها .

_لا أريدك أن تترك مهنتك .. أنت طبيب بارع وجميع سُكان القرية بحاجة إليك لا أحد ينكر ذلك .. كل ما أريده منك هو أن تنسلخ من رداء التعالي والغرور الذي تتلحف به سيدي للعلم أهمية .. أوافقك الرأي لكنه لايستطيع فعل أي شئ .. وجود العقل وإيمان القلب أهم من العلم .

_ لك ذلك .. سمحت لك بالبقاء بغرفتها الأيام التي تحب.

_ لا أطلب الكثير .. إسبوع واحد لا أقل ولا أكثر .

_ أي غرور هذا يارجل دعني أمنحك شهرا إضافيا؟

_ أشكرك .. لا أحتاج لأكثر من إسبوع .

_ لك ذلك وإن شئت زد من عندك .

تجاهل (إياد) سخريته المتعمدة ونظراته المستهزئة .. لأن لا هذا الطبيب ولا غروره ولا أي أمر في الوقت الراهن يهمه أكثر من سلامة(ياقوت) كل مايعلمه الأن أن رهانه مع الطبيب ليس أكثر أهمية من رهانه مع نفسه وقلبه وروحه بإستعادتها الى الحياة .

هو الأن يفعل مافعله فرس الأمير تماما .. إنه على بُعد خطوات من السقوط بعد كل ماواجهه من صعاب ومتاعب لكنه لن يسمح لنفسه بأن يسقط قبل أن يوصلها الى بر الأمان وذهب لتجهيز نفسه للدخول الى غرفة (ياقوت) بالمستشفى ..

لم يُعلق (أيمن) الجالس قرب والدته أمام غرفة (ياقوت) بكلمة وهو يُتابع مايحدث بصمت ..

جذب(إياد) المقعد ليُقربه من فراشها بعد أن أغلق الباب خلفه فلم يعد بالغرفة سواهما والأجهزة المحيطة بها .

_(ياقوت) أدري بأنك تسمعيني هذا أنا(إياد) هنا معك لاتخافي .. لاتخافي ياصغيرتي لقد أنقذتك منهم .. أتذكرين تلك الأرض التي سقط بجوفها القطار؟ لقد ذهبت إليها من أجلك كنت أسمع نداءك صدقيني كنت أسمعك بوضوح ومازلت .. لقد أخرجتك من هناك .. إقتحم أميرك حصونهم وأحضرك الى ديارك .. صدقي ذلك يمكنك أن تفتحي عينيكِ .. لن تريهم .. سترين (إياد) بقربك .. لن يقتربوا منك لقد أخرجتك من هناك أعلم أنك تسمعين ماأقول .

ثم أنحنى صائحا في أذنها بصوت مرتفع :

_ صدقيني أنا لا أكذب أقسم لك إنك هنا معي في ديارنا في قريتنا .. إفتحي عينيك هذا ليس حلما إنها حقيقة حقيقة يا(ياقوت) .

إرتجفت (ياقوت) وهي تهز رأسها بعنف لكنه أمسك رأسها بين يديه بقوة وهو يردد:

_(ياقوت) أنا(إياد) لاتخافي .. أنا هنا .. أنا(إياد) أنا (إياد) ..أنا(إياد).

بللت دموعها يديه وشفتيها تهمس بضعف :

_(إياد) أحتاج إليك أنا خائفة سيقتلونني يا (إياد) .

ثم غابت عن الوعي وصوته يصيح بأذنها :

_أنا هنا يا(ياقوت) أنا أسمعك لن تموتي صدقيني .. إنتهى ذلك الكابوس لقد أنقذتك منهم أنا أسمعك لكن لماذا لاتسمعيني أنت؟ لماذا يا(ياقوت)؟ لماذا؟ لماذا؟ .

سقوط الأمير

تسائلت(سوزان) عن سبب وجود(إياد) مع(ياقوت) و أخبرها(أيمن) بحيرة وشك عن ذلك الحوار الذي دار بين الطبيب وأخيه .. فتمتمت(سوزان) وهي تواصل دعواتها وتسبيحها على مسبحتها البيضاء التي لم تفارق أناملها يوما ..

_ إن وعد إبني بذلك حتما سيفي بوعده .

تمنى(أيمن) ذلك أيضا وقد تسارعت دقات قلبه وهو يرفع كفيه نحو السماء يطلب من الله شفائها .. وقد بللت دموعه المصحف الشريف .

فعودة(ياقوت) الى حياته مرة أخرى أكبر معجزة لقلبه الذي فارق الحياة من يوم رحيلها .

والأن عادت لكنه لايعلم ما الذي أصابها وهذا الطبيب يقول أشياء لايعلم أحد إن كانت حقيقة أم سراب .. وإن كانت حقيقة أي ظروف تلك غير الطبيعية التي تعرضت لها(ياقوت) ؟ مما هي خائفة؟ ولماذا يُجزم (إياد) أن بوسعه مداواتها؟ ما الذي يعرفه(إياد) ولايعرفه (أيمن)؟ أهو يقول الصدق أم يكذب؟ هل سيتمكن(إياد) من إعادة الحياة الى(ياقوت) كما فعل هو عند موت جدتها؟ كان يُفترض به هو البقاء بجانبها في تلك الغرفة حتى تشفى لا(إياد)؟ إنها تحبه وقد سمع من قبل أن الحب يداوي أصعب الأمراض؟

إقترح(أيمن) أفكاره على الطبيب وهو يخبره بقصة الحب التي تجمع بينهما .. ولم يكن أمام الطبيب خيار سوى إبلاغ السلطات لتولي أمر هذه الحالة غير الطبيعية ومن ثم إرسالها الى أحدث المستشفيات لتتلقى العلاج هذا إن تمكن الأطباء من تحديد حالتها .. لكن رهانه مع(إياد) والوعد الذي قطعه له جعلا هذا القرار يتأجل لخمسة أيام أخرى تنتهي فيها الفترة التي حددها (إياد) لعلاج(ياقوت) وللرهان .

ستة أيام ولم تفق(ياقوت) .. أعاد على مسامعها كل قصص الجدة وكيف كانت حياتهم الجميلة قبل وفاتها ثم حكى لها عن حياتهم في المدينة وكيف كانت روعة العلاقة التي تربط بينهم كيف أنها قررت يوما أن تتخلى عنهم وتذهب .. كيف إختفت .. وكيف عثر على قوة الملكة لإنقاذها .. ستة أيام قال فيها ملايين من الجمل التي تقفز الى مخيلته بسهولة وكأن كل الكلمات تتحالف معه من أجل شفائها .

لم يتبقى سوى يوم واحد قد تعود(ياقوت) الى الحياة وقد تفارقها .. مازال يصارع .. ولم ينهار بعد .. إقترب من أذنها قائلا :

_أيقنت بأنك لاتسمعين صوتي مثلما أسمعك أمامنا يوم واحد فقط وينتهي الرهان الذي أخبرتك عنه بعدها لن يسمحوا لي بالبقاء معك .. فإن لم تعودي الى الحياة سأغادر لأنهى حياتي وأرتاح .

وقف أمام النافذة وفتحها ليدخل الضوء الى الغرفة في سادس يوم لهما معا .. لقد أوشكت الفترة المحددة على الإنتهاء .. الآن هو على بُعد خطوات من التشكيك في ثقته بنفسه وإيمانه بمعرفته بها .

تقوقع في ركن الغرفة مندهشا بائسا حزينا وهو يقول:

_ بعد كل مافعلته ستموت؟ لم يقتلها سقوطها ولا حبسها في صندوق فهل سيقتلها الخوف؟ ياللسخرية؟! لقد حاربت من أجلك لكنك تفشلين في محاربة نفسك؟ لقد فعلت كل مابوسعي لتبقين على قيد الحياة لكنك ترغبين بالرحيل؟ حسنا .. إذهبي إن كان هذا ماتريدينه أنتي في أرضك ومع أسرتك وترفضين الحياة في حين أنك كنت تصارعين للبقاء فيها عندما كنت هناك؟ كيف أقاتل من أجل إنسان ضعيف لايستطيع مقاتله خوف بداخله؟ لم يهزمني أحد مثلما هزمتني أنتي يا(ياقوت)؟ الآن أنا من سيغادر هذه الحياة .. أنا من سيتركها لك ويذهب إفعلي بعدي مايحلو لك إلحقي بي أو إبقي .. الخيار يعود لك .. لكنني لن أبقى مع شخص لايمكنه سماعي بعد الأن لأترقب موته وأتابع نبضات قلبه على الأجهزة .

_(إياد) .. (إياد) .. أنا أسمعك .

لم تصدق أذنيه ماسمع .. كررت كلماتها وهي تمد يدها إليه .. هرول نحوها وضم يدها بين يديه وهو يقول من خلف دموعه :

_ هل تسمعيني حقا يا(ياقوت)؟

ردت بصوت ضعيف مرتجف وقد بدأت الدموع تتسلل من عينيها:

_ أسمعك .. أنت هنا أليس كذلك .

_ أجل .. يمكنك الأن فتح عينيك ستريني أمامك ..هيا.

_ أنت لاتكذب علي؟

_ لا أكذب ياعزيزتي إنه صوتي ..هذا أنا يمكنك رؤيتي .. هيا .. يمكنك ذلك .

خافت أن يكون حلما لكن حرارة يديه ودفئهما جعلاها تتشجع وتنفذ كلامه .. وكان هو .

إمتلأت عينيها بالدموع وهي تنظر الى وجهه .. الى ملامحه .. الى دموعه .. لم يكن حلما .. إنه حقا(إياد).

_ (إياد) .

لم تتمكن من الحديث مع شلالات الدموع التي إنفجرت من أعينهما في تلك اللحظة أرادت أن تغمره بشدة وتشكره لأنه لم يُخيب يوما ظنها وثقتها به .. لم يتحرك لسانها .. عجزت عن إيجاد كلمات تصف بها ماتشعر به نحوه الأن وفهم هو كل ما أرادت قوله وهما يغمران بعضهما وأصوات نحيبهما قد تخطت حدود الغرفة ليندفع الطبيب لرؤية مايحدث .. قبل أن تصدمه المفاجأة .

لم يسمح له الوقت لتفسير مايحدث لأن(إياد) سقط منهارا ونظرة إنتصار كبيرة تلمع في عينيه .

لا أحد يفهم مايحدث شفيت(ياقوت) وسقط(إياد) عند شفائها .

للمرة الثانية كان الطبيب أمام حالة أخرى إستعصى عليه علاجها .

كل ما أمامه يشير الى أن(إياد) لم ينام طوال أسابيع متتالية وربما أكثر من هذا؟! ما الذي أصاب هذان الأثنان؟! ليُخبرني أحدا أين كانا؟ ولا أحد يملك الجواب ليُجيب الطبيب الحائر الذي تتالت عليه المفاجآت الواحدة تلو الآخرى .

وداعا

غريبة هذه الحياة والأكثر غرابة هو المبدأ الذي نسير عليه لنعيش فيها .. تلك الظلمات التي نتخبط بقلبها لنتمكن من رؤية الحق والنور .. الصراع الذي نكابده للحافظ على حياتنا في بر الأمان .

نظن بأننا الأقوى والأدهى ونخيف كل الموجودات على الكون ولانخاف .. بالأحرى نحن لانفقه شيئا ممايدور هنا لانجد تفسيرات لكل مايحدث ولانعترف بأننا أضعف مما نبدو عليه والخوف ينهش عقولنا وقلوبنا من إكتشاف حقائق لاتقدر عقولنا على إحتوائها .

(إياد) هو بشري في آخر الأمر .. له طاقة وقدرة محدودة لايستطيع تكوينه البشرى تحمل مايفوقها لوقت طويل وتلك القوى التي حملها بداخله ساعدته ليتحمل فوق كل طاقات البشر قبل أن يعلن عن إنهياره وربما إنسحابه المبكر من معركة الحياة الضارية .

كل الدلائل تؤكد أن الأمل يتلاشى يوما بعد يوم .. ولايوجد سوى إحتمال ضئيل ليتعافى(إياد) والأخطر من موته هو أنه سيفقد عقله ويُصاب بالجنون إن عاد بمعجزة ما الى الحياة مثلما عادت(ياقوت) .. الفرق بينهما إنها كانت خائفة من العودة .. وهو الأن أمام تدمير شامل لكل خلايا المخ التي شهدت إضطرابا حادا لعدة أيام مما أصابها بالتلف .

_ هل سيجن إبني؟

تسائلت والدته من خلف دموعها التي لم تجف من يوم غيابهما وهي تجزم إنه بخير وسيعود كسابق عهده .

لكن هذه المرة لم تجدي محاولات(ياقوت) ولا أي أحد آخر لعلاجه .. (إياد) لن يعود كما كان .. هذا إن عاد .

لم تبارح(ياقوت) غرفته ودعمته بكل قوتها المتبقية لكنه لم يكن هنا .. مايواجهه هذا المحارب القوي هذه المرة أكثر من قدرته على الإحتمال .. لن تنقذه منه حتى إرادته الصلبه وحبه للحياة .

للمرة الأولى يرون(إياد) غير الذي يعرفونه .. (إياد) البشوش دائم الضحك والمزاح والحركة يرقد بإستسلام على فراش المستشفى بلا حراك .

مر شهر كامل والحال كما هو عليه .. لم يبارح(إياد) مرقده ولم تبارح(ياقوت) وأمه المستشفى إلا لشئ ضروري .. وقسم(أيمن) وقته بين عمله والمكوث في المستشفى معهما لمتابعة حالة أخيه الميؤوس منها ..

شعرت(ياقوت) بالذنب لأنها السبب في وصول(إياد) الى هذه الحالة , لم تكن تعلم بعد كيف ستمد له يد العون وتسانده حتى يعود إليهم؟ كانت قلقة عليه على أن تفقده وتظل تبحث عنه كل الحياة وتناديه فلاتجده .. (إياد) هو الروح في جسدها فكيف ستعيش إن غادرت تلك الروح وتركتها .. مايُبقيها الأن هو وجوده وأنفاسه كيف سيتركها خلفه ويستسلم؟ كيف ينقذ حياتها وييأس من إنقاذ حياته؟ إن قلبها يتقطع حزنا وهي تراه في هذه الحالة .

لم تتوقع في حياتها قط أن تراه صريعا على فراش .. توقعت من الجميع المرض والرحيل بعد جدتها وأيقنت أن لا أحد يدوم لأحد لكن(إياد) آخر من توقعت مرضه أو رحيله ظنته سيبقى معها حتى الأبد لكن الرحيل ينتقي من نحب بعناية فائقة ليأخذهم معه .

دوما توقعت أن رحيله سيكون بعيدا .. أنهما سيقضيان معا شبابهما وكهولتهما لم تتخيل الحياة من دونه يوما لم تتخيل أن رحيله قريبا بكل هذا القدر .. الأن هي تعرف شيئا واحدا فقط لاهروب منه وهو إنها لن تبقى ولاساعة واحدة إن غادر(إياد) هذه الحياة .

هي لاتحتمل حياة لاوجود له فيها لأن كل تفاصيل حياتها الصغيرة والكبيرة ولحظات سعادتها وليالي عمرها لاتخلو منه .. وهو كل حياته تدور في محورها فكيف لهما أن ينفصلا؟ كيف لأحدهما ترك الآخر والإبتعاد وهما لم يفترقا يوما ؟ .

لقد أحبت (أيمن) حبا كبيرا جعلها تترك خلفها كل شئ لكن ذلك الحب ضاع الأن .. لاتستطيع إيجاده .

برود (أيمن) وتصرفاته وأخيرا تخليه عنها وتقبل خبر إختفائها بسلام .. كل تلك الأشياء لوثت الحب الذي كبرت به تجاهه .. لم تعد تشعر نحوه بتلك الأحاسيس الصبيانية التي كانت تحسها من قبل بات بإمكانها البقاء معه في منزل واحد والتعامل معه بكل سهولة متجاهلة نظراته المتسائلة .

كان قلبها مع الشخص الأقرب إليه .. إن كان أخا أو صديقا .. الشخص الذي يهيم على وجهه بين الطرقات والمُدن يختفي وتتوارد الأخبار من بعض الأشخاص بين الفينة والأخرى عن رؤيتهم له في أماكن متفرقة . كان قلبها مع ذلك المجنون يؤنس

وحشته ويحميه من قسوة الحياة .. لم تستطيع مغادرة الحياة وهو مازال فيها فهي تعلم أنهما حتى لو لم يكونا معا فهما مرتبطان مع بعضهما وروحها تساند روحه أينما كان .. وحتى إن فقد عقله سيظل قلبه مطمئنا بأن(ياقوت) معه .. ستظل روحه موقنة بأن روح(ياقوت) لن تفارقها في الحر والبرد والجوع والعطش والعذاب ..

البعض قالوا أن جمال(إياد) هو السبب في جنونه وبأن العين الحاسدة أصابته من وراء ذلك الجمال والمعاملة الطيبة والروح المرحة , البعض قال أن هذا الجنون بسبب فتاة أحبته وعندما رفض حبها أكادت له كيدا أذهب بعقله .. وكالعادة ودوما الأفواه لن تخرص وكل يُفتي فيما يعرف وفيما لايعرف .. لا أحد يشعر بألمك إلا أنت .. ليقولوا مايقولون فهم لن يُسكتوا ألسنتهم النتنه أبدا لأن الناس دوما بحاجة للحوم بشرية لمضغها في جلساتهم .

(ياقوت) لاتعرف كيف تمكن(إياد) من إنقاذها .. وأسئلة كثيرة ماتت لأن(إياد) جن وهام على وجهه .

لو كان الحزن يقتل لكانت(سوزان) في عداد الأموات من سنوات .

تخرجت(ياقوت) من كلية الطب وهي تضع نصب عينيها هدفا واحدا وهو إكتشاف علاج للجنون لتداوي به(إياد) الذي لم يعثر عليه أحد حتى الأن .. لكن الناس يؤكدون رؤيته في أماكن مختلفة .. أحيانا في أسواق وأحيانا أماكن تجمع الأوساخ قالوا بأنه كان يجلس هنا منذ عدة أيام بثيابه الرثة المتسخة وقدميه الحافيتين المتورمتين من السير سنوات تحت الشمس الحارقة والأرض الصلبة القاسية مما يعني بأنه على قيد الحياة.

لن أتركك

الجنون هو اللامبالاة أن لاتهتم بكل مايدور حولك مطلقا كان(إياد) فاقدا لكل الحواس ولايعرف حتى نفسه ولا من حوله .

السير بين الطرقات كان أحب الى نفسه من السجن بين الجدران لأنه يجد الراحة والأمان وهو يسير بلاهدف بين الشوارع والأسواق .. وجوه وملامح .. حيوانات وبشر وجن يرى كل شئ يدرك كل شئ لكنه مذهولا أمام مايرى من الحقيقة التي لايراها العقل السليم ..

لايوجد مكان خالي في الأرض أينما تطأ قدمه شياطين وجن وأنس وملائكة ومخلوقات لم نعرف لها إسما بعد لكنه لايهتم لأمر أي شئ .. فهو بات يعرف بأنه سيموت يوما ما ويولد في الحياة الأبدية شخصا أكثر نقاء وصدق لم يكن يحس بحرارة الشمس تلسع جسده وقدميه الحافيتين .

لايشعر بألم الجروح والتقرحات على قدميه وهي تنزف دما .. لايشعر بجوع ولاعطش ولامرض ولا ألم .. يعيش في حالة من الصعب تفسيرها .. عينيه تنظر الى كل ماحوله بصمت وتراقب بصمت .. لكنه لايرغب في التحدث ولا الإقتراب من أحد .. هو ينظر فقط ويفهم ويعرف لكنه لايهتم ولايبالي .

يجلس في الأركان والشوارع مغمضا عينيه وشئ ما بداخله يتمنى ألا يفتحهما أبدا يتمنى له الخلاص من هذه الدنيا .. لايعرف إسمه ولاهويته لايعرف أحدا ..

كل مايعرفه إنه ينتمي بطريقة أو بأخرى الى هؤلاء الذين يشبههم الى حد ما .. لكن الفرق بينه وبينهم هو أنهم نظيفون من الخارج ومتسخون من الداخل عكسه تماما .. هم يهتمون بالمظهر ويقضون أوقاتا لتنظيف ثيابهم وأجسادهم وهو متسخ قذر .

لارغبة له في الحياة بكل مافيها لاملبس ولا مأكل ولامشرب .. الجنون هو قمة اللامبالاة .. اللامبالاة من الحياة والألم والجوع والعطش والبرد والموت .

لم يكن يبالي أين هو اليوم وأين ستقوده قدميه في الغد كان يسير فقط لينهار يوما ويسقط الى الأبد .. لايهم كم قطع من المسافات ولاكم سيقطع فهو راض تماما بتلك الحال التي وصل إليها لايهمه أن يعرف ماالذي أوصله الى حد السخرية من الحياة والموت والألم لكنه قانع تماما بأنه الأن في أفضل حالاته ولايرغب في حياة غير هذه الحياة الحرة .

لايرغب في حياته السابقة أي كانت وأي من كانوا بها إنه الآن يشعر بالطمأنينة والحرية وهو يراقب الحياة من على البعد ويبتسم في وجهها بسخرية ..يرى الشمس تغادر ويستقبلها عند عودتها .

يسامر النجوم والقمر ويعانق ذرات التراب ويفتح زراعيه بإتساعهما لإستقبال البرد القارص وأشعة الشمس الحارقة والأغبرة والأمطار .. يسمع مايدور حوله من مدينة الى أخرى ومن قرية لأخرى لاتوقفه حدود ولا إتفاقيات .

من الناس من ينظر إليه بشفقة .. منهم من يخاف منه ويبتعد , منهم من يُطعمه ويُسقيه ويُغطي جسده بقطعة قماش .. ينظر فقط لأولئك ويواصل رحلته اللانهائية إلا أن يقضي الله أمرا كان مفعولا ..

_على أحدكما أن يتزوج .. هذا قضاء الله وقدره يكفي ما عشناه من أحزان .. سأمنحكما شهرا .. على أحدكما أن يتزوج من هذا المنزل ويُنجب لي أحفادا ول(إياد) أبناء إخوة ..(قالت سوزان بحسم)

موقف(ياقوت) واضح من مسألة الزواج ..لأنها رهنت كل حياتها للبحث عن(إياد) ومعالجته مهما كلفها الامر.

الخيار الآخر هو زواج(أيمن) الذي لايجرؤ على رفض طلبات والدته مهما كلفه الثمن .. و(ياقوت) التي يتنفس عشقها باتت بعيدة عنه ونافرة وكأنه السبب في الحالة التي وصلت إليها هي وأخيه .. تحولت نظراتها نحوه من الحب لكراهية لاحدود لها وتعامل رسمي وجاف وكأن لاشئ يربطها به ألبته .. كأن الرابط بينهما لاشئ سوى أخيه المجنون وبعده تقطعت كل الصلات فلم تعد تملك الرغبة والوقت في التحدث إليه وتفانت في الأبحاث والدراسات من أجل إكتشاف أي أمل لعلاج(إياد).

طريقة حديثها عن أخيه وشرودها الساعات الطوال تتأمل صورته الكبيرة المعلقة على جدار غرفتها غير واعية بما يدور حولها ودموعها تنسكب بحرقة حينها لم يساوره الشك ولا لحظة واحدة بأن كل هذا الحب لأخيه وليس له .. وقرر الزواج .. فهو دوما الضحية في هذا المنزل وعلى إستعداد لدفع كل عمره من أجل إسعاد والدته وراحتها ..

تزوج الفتاة التي إختارتها له أمه وجلبها زوجة له الى المنزل ..

لم تفهم العروس السر خلف نظرات الألم والحزن التي طلت من أعينهم يوم زفافها لكنها علمت أن الإبن الآخر للمنزل أُصيب بالجنون في ريعان شبابه وهام في أرض الله الواسعة لا أحد يعلم له وجهة محددة ولا مكان ثابت .. وإهتز قلبها مرتجفا عند

رؤيتها(ياقوت) ذات الجمال القاتل وهي تعزف عن الزواج وترفض كل من يرغب في الزواج منها وتمضي ليلها ونهارها بين الكتب حتى أنها لم تسمع صوت ضحكتها منذ قدومها ولم ترى سوى إبتسامة باهتة بين شفتيها بالكاد تلوح .

حتى زوجها الذي يتظاهر بالسعادة يعجز عن إخفاء حزن قلبه المرسوم بوضوح على عينيه .. المنزل الذي أتت إليه كئيب وصامت وحزين .. تحاول الأم المؤمنة التي لاتفارق مسبحتها أناملها تخفيف هذا الحزن قدر المستطاع ودعواتها لاتكف لإبنها الغائب بأن يحميه الله أينما كان ويُعيده إليها ..

في أحيان عدة أحست العروس بالغيرة من(ياقوت) وهي تشعر بأنهم وقتما إجتمعوا في مكان واحد أن جمالها يطغى على كل المكان فتصبح هي لاشئ أمامها وكأنها لاتمت الى الأنوثة بصلة أمام تلك الفاتنة .. ثم رويدا رويدا إستعادت الثقة في نفسها بعد أن تقربت من(ياقوت) وواجهت الروح البائسة التي تقبع خلف هذا الجمال وذاد ثقتها عدم تأثر زوجها بجمال إبنة خالته وعدم إهتمامه بها ومعاملة (ياقوت) العادية والجافة ل (أيمن).

ياقلب قف

أقسمت(ياقوت) بأنها لن تعيش بعيدا عن الهدف الذي وضعته نصب عينيها .. أقسمت أن لاطبيب غيرها سيُعالج(إياد) ويُعيدة الى حالته الطبيعية .. لم تكن تنجح من أجل شهرة ولا مال كانت تجري بحثا تلو الآخر وتتفوق في دراساتها داخل وخارج البلاد من أجله وحده .

كرست كل حياتها دون أن تشعر ل(إياد) .. لزكرياته لصوره التي تبكي وتضحك في آن واحد وهي تقلبها بين يديها .. هذه الصورة كانت بين الحقول في القرية وهما يقومان ببناء قصور من الرمال عندما إلتقطت لهما جدتهما هذه الصورة .. وتلك له وحده فوق الدراجة النارية .. وتلك وتلك وتلك ..

كانت هي الآخرى مجنونة لكن أقل جنونا منه مجنونة بشخص فقد عقله لتعود هي الى الحياة .. لا أحد يفهم ذلك غيرها .. فمن العار أن تتزوج غيره أو تموت بعد جنونه من العار أن تضحك وتعيش حياتها وتتناساه.

ذنب (إياد) يكبلها بإحكام يُحرم عليها التفكير في نفسها إفتقادها له لايستطيع بشر على ظهر الأرض تعويضه.

زكرياته تحاصرها في غرفة العمليات والأبحاث وبين الطرقات والناس لم يغيب من حياتها أبدا لتنساه وتتناسى وجوده ومافعله لأجلها لتتزوج وتعيش مثلما فعل أخيه .. أحست أن ماتفعله الآن وماتعيشه معه سيمنحه الدفء والحنان والأمان أن دعواتها ودعوات أمه ستحميه على الدوام وتنجيه وتحفظه.. لذلك لايمكنها أن تكف عما تفعله له حتى تموت أو يعود(إياد) الى عقله ويصبح إنسانا طبيعيا.

لاتدري كم من السنوات بعد ستفعل ذلك لكنها ستتمسك بالحياة حتى ترى جثته أمام عينيها فقط في ذلك الوقت سترحل معه وللأبد ..

النهاية